قضايا
اجتماعية وثقافية
من واقعنا

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

اسم الكتاب: قضايا اجتماعية وثقافية من واقعنا

المؤلف: أحمد التلاوي

التدقيق اللغوي: د. ياسر عوض

تصميم الغلاف: محمد دربالة

الإخراج الداخلي: أحمد البسيوني

رقم الإيداع: ٢٠٢٢/١٥٣٧٦

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٨٧٤-٩٥-٤

مسار للنشر و التوزيع

ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية

01020439639

massar.pub1@gmail.com

قضايا
اجتماعية وثقافية
من واقعنا

تأليف

أحمد التلاوي

القاهرة

2023

مسار
للنشر والتوزيع

إِهْدَاء

إلى روح أبي وأُمِّي رحمهما الله..

إلى كُلِّ أساتذتي أصحاب الفضلِ عليَّ..

إلى كُلِّ أَبٍ وأُمٍّ..

وإلى فَتاةِ المَدرَسةِ؛ أعظَمِ أُمٍّ رأيتها بعد أُمِّي

مُقَدِّمَة

[١]

من بين الظواهر الاجتماعية السلبية التي ارتبطت تطورات واقعنا الإنساني، وأثَّرت على أنماط تفكير الأجيال الجديدة، تحوُّل مفهوم «التيك أواي»، إلى ثقافة شائعة تشمل كل مناحي الحياة.

فنتيجةً لعدد من الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تحياها مجتمعاتنا العربية والمسلمة؛ صار «التيك أواي» نمطًا عامًّا يُمَيِّز سلوك شريحة عريضة للغاية من شبابنا، وشَمِلَ ذلك الجانب الأهم في مرحلة الشباب، وهو المتعلق بقضية السعي والإنجاز؛ حيث يمرُّ الإنسان مرور الكِرام على الكثير مِن الأمور التي هي في الحقيقة والأصل، على أكبر قدرٍ مِن الأهمية، وجزءٌ لا يتجزَّأ من عقيدة الإنسان، بل ومن تصوراته حول نفسه وذاته الإنسانية.

وهذا الأمر – السعي والإنجاز – ليس من نافل حياة الإنسان، أو من نافل التفكير فيه عنده، بل إنَّه من صميم إنسانيته؛ حيث الإنسان مخلوقٌ رسالي، أي أنَّ اللهَ تعالى خلقه من أجل أداء مهام ورسائل معينة على الأرض، على رأسها عبادة الخالق عزَّ وجل، وإقامة عقيدة التوحيد، وإعمار الأرض.

وهذه الأخيرة، إعمار الأرض، في إطار استخلاف اللهِ تعالى للإنسان فيها؛ تتطلب من الإنسان الكثير مِن العمل والسعي.

والقرآن الكريم تحدَّث عن قضية العمل والسعي في عددٍ كبيرٍ مِن الآيات، وكذلك الحديث النبوي الشريف؛ كُلُّها تؤكد بواضح العبارات والكلماتٍ أنَّ مصير الإنسان في الدنيا والآخرة، إنَّما هو حصادُ عمله وسعيه.

في سُورَةِ «التَّوْبَة»، يقول اللهُ تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾، وهذا العمل إما أنْ يكونَ صالحًا؛ ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ [سُورَةُ «الأنبياء»]، أو يكون ضالاً؛ ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [سُورَةُ «الكهف»].

وأهمُّ ما ينبغي إدراكه في ذلك، هو أنَّ العبادةُ، والتي هي أَوَّلُ ما سوف يحاسَبُ عليه العبدُ؛ إنَّما هي دربٌ من دروبِ السَّعي والعملِ.

وفي الحقيقةِ؛ فإنَّه مِن نافلِ القول التأكيد على أهمية ذلك؛ حيث إنَّه مِن بين أكثر الأمورِ رُبَّما التي تناولتها المناهج التربوية، والكتب والمقالات الفكرية عبر تاريخ العمل الإسلامي منذ بداياتِ هذا الدِّين.

لذلك باعث الكتابة الآن، أكبر من أيِّ وقتٍ مضى؛ حيث إنَّه بالرغم مِن بديهية هذه الأمور، وأنَّها حتى كانت مِن أوائل الأشياء التي كُنَّا نتلقاها في مدارسنا الابتدائية، في التعليم المدني حتى في غير محاضن التعليم الديني، مثل الكتاتيب والمدارس المعاهد الأزهرية؛ فإنَّنا الآن نقف أمام صورةٍ سيئةٍ للغاية لكثيرٍ مِن الشباب؛ حيث فقدانٍ كاملٍ للرغبةِ في السعي والعمل وخدمة الدين، وخدمة رسالته في هذه الحياة.

هذا مما يُسمِّيه علماء النفس، بفقدانِ الشَّغَفِ أو الاهتمام؛ حيث نتيجة العديد من الظروف؛ لا يعود الإنسان مُباليًا او مهتمًّا بأيِّ شيءٍ، حتى بأموره الذاتية، ويترك نفسه نهبةً لريح الحياة وتياراتها؛ تجرفه حيث شاءت؛ لا حيث ينبغي أنْ يكون، مما تقتضيه مصلحته ومصيره ونجاته في الدنيا والآخرة.

..*

[٢]

هنا نصل إلى نقطةٍ مهمةٍ أخرى فيما تنبغي دراسته في هذه القضية، وهي كيفية التعامل مع هذه المشكلة.

أهمُّ أداةٍ في ذلك، هو تذكير الإنسان بما أتى به القرآن الكريم في هذا الصدد من أمورٍ وقناعاتٍ عَقَديَّة، وتعاليم يجب على الإنسان المسلم الالتزام بها.

ومن أهمها أنَّ المعاناة سُنَّةٌ ربَّانيَّةٌ حتميةٌ فرضها اللهُ تعالى علينا، وأنَّ السعي والعمل في حدِّ ذاتها؛ أشياء مأمورٌ بها الإنسان، ويجب عليه أنْ يقومَ بها بقطعِ النَّظرِ عن صروفِ الزمن، وظروف المجتمع المحيط به، وبصرفِ النَّظرِ عن النتيجة التي اختصَّ اللهُ تعالى نفسه بها، ولا ينبغي أنْ نشغلَ أنفسنا بسؤال الفشل، إلا في لبحث أسبابه لأجلِ التغلُّبِ عليها.

فالغرض مِن العمل والسعي، أمران؛ الأول، أنْ يقومَ الإنسان بما عليه من واجبات. هذا في حَدِّ ذاته ضروريٌّ ومفروضٌ على الإنسان، وهو ما سوف يحاسَبُ عليه؛ نجحَ أم فشل؛ سيَّان عند اللهِ تعالى في هذا، والأمر الثاني، تحقيق الأثر الطيب المنشود مِن أيِّ جهدٍ إصلاحيٍّ يقوم به.

وليكن شعار الإنسان الدائم مثلما قال موسى (عليه السلام) لفتاه: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ﴾ [سُورَة «الكهف» - مِن الآية ٦٠]، مع ضرورة توظيف الإنسان لما منحه اللهُ تعالى له مِن ممكناتٍ، في إطار قانون الأخذ بالأسباب، كما في قصة ذي القرنَيْن في نفسِ

السُّورَة. يقول اللهُ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾، ثُمَّ تكرَّرت عبارة «ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا» بعد ذلك في كلِّ موقفٍ له في السُّورة الكريمة، في الآيتَيْن (٨٩) و(٩٢).

.....

.....

وفي الأخير؛ فإنَّه مِن المهمِّ على الإنسان أنْ يؤمن بأنَّه لا يقوم بما يقوم به لأجل إرضاء الناس؛ فإذا ما رضوا ومدحوا؛ واصَل، وإذا نَقِموا؛ توقَّف، أو لأجل مغنم ذاتي؛ إذا ما ضاع منه، أو لم يتحقَّق؛ فقد اهتمامه بالعمل والسعي، أو انتقم وأفسد، وإنما هو يقوم بما يقوم به لأجل النجاة بنفسه وقت الحسابِ، من خلال تنفيذ ما أمرنا اللهُ تعالى به، وإرضاءً له سبحانه.

..*

[٣]

ولعل أهم ما تأثرنا به في الفترة الماضية القريبة من حياتنا، كانت أزمة وباء «كوفيد-١٩»، والتي وضعت أيدينا على الكثير من المشكلات التي تعاني منها الإنسانية بشكل عام، على المستوى السلوكي والأخلاقي، وعلى مستوى السياقات التي تسير على أساسها المجتمعات.

في الإطار السابق، نشر المؤلف مجموعةً من المقالات على موقع «بصائر» الفكري، وضع فيها يده على جذور أساسية لهذه المشكلات، خلُص فيها إلى أن الوباء ليس هو المشكلة في حدِّ ذاته، وإنما المشكلة الأساسية، تكمن في منظوماتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تسير عليها الإنسانية، والتي تعود إلى جذرٍ واحد، وهو الرأسمالية المتوحشة، التي تضم أسوأ آفات النفس البشرية، مثل شهوة الكسب، والأنانية والفردانية.

ويضم الفصل الأول من هذا الكتاب، «الكورونا.. قضايا سلوكية واجتماعية»، مجموعة مختارة من هذه المقالات، التي تتناول طائفة واسعة من القضايا التي تكشف عن الكثير من عوراتنا، وتقدم – أيضًا – الكثير من النصائح في كيفية معالجة أمورنا بصورة أفضل في المستقبل، واضعًا الدين وتصوراته وأخلاقياته، ثم العلم بقواعده التي هي قوانين اللهِ تعالى أيضًا في خَلْقِه وعمرانه، كمرتكز أساسي لذلك.

كما خاض المؤلف كباحث في مجال العلوم الاجتماعية، تجربةً مهمةً مع دار «مسار» الكريمة، وهي تجربة مشروع مركز «إشراقة» لثقافة الطفل وتنمية المهارات، والتي

استمرت على مدار عامل كامل، كانت فيها تجربةً ناجحةً، وإنْ اعترضتها بعض العراقيل التي جعلتنا نتوقَّف قليلاً لإعادة دراسة الأمر قبل إعادة إطلاقه مرَّةً أخرى.

أوقفتنا هذه التجربة التي تمت في آفاق وشرائح مجتمعية مختلفة ومتنوعة في مستواها التعليمي والثقافي، والاجتماعي والاقتصادي، أمام الكثير من المشكلات المفاهيمية الحاصلة لدى الآباء والأمهات، ولدى المربِّين في محاضن التنشئة والتربية المختلفة، في صدد تعاملهم مع الأطفال.

ومما نعلم؛ فإنَّ المشكلة المفاهيمية تقود إلى أخطاء في التعامل مع الظواهر التي نكون بصددها، وفي التربية وعملية التنشئة، يكون أثر هذه الأخطاء تراكميًّا، ومُضاعفًا، وواسع المدى.

فكانت الكثير من الخلاصات التي نجدها في الفصل الثاني من هذا الكتاب الذي يحمل عنوان «في كيفية فهم وتربية الأطفال.. دروس مستفادة من مشروع إشراقة»، وفيها سوف نجد توصيفًا حاولت فيه تحرِّى الصفة العلمية قدر المستطاع، وتقديم نصائح عملية سهلة التنفيذ بالنسبة للفئات السابقة المشار إليها، من أجل تربية وتنشئة أفضل لأبنائنا.

كما اشتمل ذلك على بعض النصائح في كيفية تطوير قدرات ومهارات الأطفال، وكيفية اختيار المادة التي يقرؤونها، من أجل توسيع مداركهم، وتحسين أفقهم العام.

.....

.....

وفي النهاية، فإنني أضع هذه المادة كلها بين يدي القارئ الكريم، آملاً من اللهِ تعالى أنْ تكون فيها الفائدة المرجوة، وأن تشارك بصورة فعالة في رسالتنا الدائمة في هذه الدنيا، وهي رسالة الإصلاح.

أحمد محمود التلاوي

القاهرة في:

الجمعة الثامن عشر من مارس ٢٠٢٢م

الفَصْلُ الأَوَّلُ

الكورونا.. قضايا سلوكية واجتماعية

أحوال ما بعد الأزمات..
كيف يستطيع الأفراد والمجتمعات استعادة الإيقاع؟

وفق مقتضى الحال؛ فإن موضوع فيروس كورونا المُسْتَجَد، أو مرض «كوفيد-١٩» الذي تسبب هذا الفيروس في أن يجتاح العالم، هو الشغل الشاغل للإنسانية في الوقت الراهن؛ حيث أدت جائحة الوباء إلى أزمات عديدة في مختلف الاتجاهات؛ اقتصادية وسياسية واجتماعية ونفسية.

وبالتالي؛ فإن موضوع الوباء صار هو المحور الأساسي لأحاديث الإعلاميين والخبراء والباحثين، وصارت أخباره والتوعية به، وفقط، هي التي تتصدر واجهات القنوات الفضائية والمنصات الإلكترونية.

ولم يخلُ الأمر من جوانب استشرافية؛ حيث يتحدث البعض عن إعادة رسم خرائط القوى في العالم بسبب تأثيراته في المجالات ذات الطابع الإستراتيجي، وبدأت تقديرات كثيرة عن «عالم ما بعد كورونا»، وما إلى ذلك.

إلا أنه، ومن خلال تطواف مدقِّق في المادة التي يتم نشرها عن هذا الموضوع الذي سوف يقف أمامه التاريخ الإنساني طويلاً، لم نجد الكثير من المواد ذات التأصيل العلمي عن نقطة شديدة الأهمية، وهي كيف يمكن للأفراد والمجتمعات استعادة التوازن في مرحلة ما بعد الأزمة.

وهذه النقطة ذات مركزية مهمة؛ حيث إنها في الأصل الجذر الذي سوف يستند إليه حتى النشاط الاقتصادي على مستوى الأفراد، وحركة المجتمعات بشكل عام هي أساس حركة الاقتصاد الكُلِّي، وبالتالي؛ فهي مركزية بالنسبة لأهم قضايا العالم في المرحلة الراهنة، وهي إعادة فتح الأنشطة الاقتصادية.

وفي الحقيقة؛ فإن هذه القضية ذات اتصال وثيق بعلم النفس، فيما يُعرَف بـ«المرونة النفسية».

وتقول الدكتورة سماح خالد زهران، أستاذ علم النفس الاجتماعي بجامعة عين شمس المصرية، إن المرونة النفسية أو الـ«Resilience»،هي القدرة على التكيف مع التغيير، وبخاصة في الحالات التي يمثل فيها التغيير حالة أزمة أو إشكالية تعيق الفرد أو المجتمع، أو كليهما عن الحياة والحركة بشكل طبيعي، وعن تحقيق أهدافه بالشكل المعتاد السَّويِّ.

وتعود أهمية هذا الأمر إلى أنه من دون؛ تحدث اختلالات حقيقية في قدرة الفرد والمجتمع على التعامل الإيجابي مع الأمور في مرحلة ما بعد انتهاء الأزمة، أو قد يحدث تغييرات للأسوأ، وبالتالي؛ فإن المرونة هي شكل من أشكال الصحة النفسية.

وفي حالة جائحة عامة شاملة مثل هذه التي نعيشها؛ فإنه بكل تأكيد؛ أن كلا الطرفَيْن بحاجة إلى الآخر، الفرد والمجتمع.

فالفرد بحاجة إلى المجتمع في المؤازرة النفسية، وفي التعاون في مجال إعادة تنشيط الحركة العامة والعمل والنشاط الاقتصادي، بينما المجتمع بحاجة إلى الفرد الصحيح

نفسيًّا من أجل أن يتحرك في إطار أكثر إنتاجية بالمعنى الواسع للإنتاجية، ليس الانتاجية الاقتصادية فحسب، وإنما التعامل الإيجابي المثمر في مختلف مناحي الحياة.

ويشمل ذلك حتى العلاقات الاجتماعية؛ حيث إنه من دون ذلك الاستواء، ومن دون ذلك التوازن والتعاون المتبادل بين الفرد والمجتمع؛ لن تكون هناك علاقات زواج ومصاهرة، ولن تكون هناك علاقات تبادل المنفعة التي تضمن أن تبقى المجتمعات والأمم على قيد الحياة.

وتزداد أهمية ذلك في حالة وباء «كوفيد- ١٩» بالذات؛ حيث إنه أزمة من نوع خاص جدًّا؛ لأنها تطلبت شكلاً صارمًا من أشكال العزلة والتباعد الاجتماعي. فحتى في حالات الحروب؛ فإن الأزمات الشاملة، لا تمنع اختلاط الناس ببعضهم البعض، وهو أهم عنصر من عناصر الأمان النفسي، للفرد وبالتالي للمجتمع.

وبالتالي؛ فإن أسوأ ما حمله لنا فيروس كورونا المُسْتَجَد، هو أن الإنسان فيه فقد أهم عوامل الإسناد في الأزمات العميقة، وهو الإسناد النفسي والمجتمعي في ظل ظروف العزل الذاتي والتباعُد الاجتماعي.

في هذا الإطار، لنا أن نتصور أثر جائحة مثل هذه إذا ما كانت قد وقعت قبل ظهور الإنترنت او وسائل التواصل الاجتماعي؛ حيث كنا سوف نسمع فيما بعد، وبصعوبة، عن حالات انتحار كثيرة، أو وفيات من دون أن يعلم بها أحد.

في هذا الإطار؛ فإن واجب الوقت الراهن، هو التواصل من دون كسر حواجز وقيود منع انتشار العدوى، من خلال الهواتف الذكية وتقنيات التواصل الرقمي

التي سمحت حتى بعقد قمم عالمية بين رؤساء دول وحكومات، وتم فيها اتخاذ أهم القرارات، مثل قمة مجموعة العشرين، و«أوبك +»، وغيرها، والتي تحدد فيها مصير قطاع النفط والطاقة العالمي، وكذلك حركة التجارة والنقل، وما إلى ذلك.

ثم نأتي إلى واجبات الوقت التي يمكن من خلالها الإعداد لمرحلة ما بعد أن يحمل الوباء عصاه ويرحل، والذي هو للآن ما لم تستطِع الحكومات ولا منظمة الصحة العالمية تحديد موعده بدقة.

والواجبات هنا جماعية، وتشكل مختلف شرائح المجتمع، بدءًا من مستوى الوحدات الأصغر، الفرد والأسرة والحي، وصولاً إلى الحكومة والأطر التنفيذية.

وهنا لابد من الإشارة إلى الأدوار البالغة الأهمية التي تلعبها الآن منظمات المجتمع المدني، ولاسيما الجمعيات الخيرية، في مواجهة جائحة الوباء، سواء لجهة منع انتشاره أو تدارؤ آثاره، من خلال الدعم المالي والعيني للمعوزين، من أجل مساعدة الناس على البقاء في بيوتهم، وتوفير المستلزمات الطبية.

وفي مجتمعاتنا العربية والإسلامية، تزداد أهمية وقيمة هذه الأدوار، في ظل ارتفاع نسب الفقر، وتزامن حالة الغلق الاقتصادي والمجتمعي مع شهر رمضان، في مقابل تعظيم هذه المجتمعات لقيمة التكافل الاجتماعي، والتي هي من أهم أدوات إسناد الحكومات في الأزمة الحالية.

وهذه المؤسسات سوف يكون عليها عبءٌ إضافي لمرحلة ما بعد كورونا، سواء لجهة إعداد الأفراد لها، أو في صدد تحريكهم من جديد عند الانتهاء من محاصرة الوباء، وعودة الحياة إلى طبيعتها.

ومن أبرز المهام في هذا النطاق، سواء من جانب مؤسسات المجتمع المدني أو الحكومات، أو قادة الرأي والفكر؛ تأسيس حالة من الوعي بالموقف، وبمتطلباته، آنيًّا وفيما بعد، وخلق الدافعية للمواطنين والمؤسسات والشركات من أجل العمل والخروج من قمقم العزلة، وحالة الخوف التي فرضها الموقف.

ثم نأتي إلى مسألة التشبيك الضروري بين مختلف هذه المؤسسات، العامة الرسمية والمدنية، في نطلق أفقي يشمل كل أطراف المجتمع والدولة، من أجل خلق حالة الوعي والدفاعية هذه، وتحقيق الترابط والتكامل اللازمين لإتمام المهمة.

وهنا تبرز أهمية الأقنية الإعلامية والثقافية المختلفة، وفي عصرنا الحالي، تشمل هذه الأقنية منصات التواصل الاجتماعي الأكثر انتشارًا وشهرة من خلال الإعلانات الممولة والفقرات المُصوَّرة والتي يجب أن تتضمن استغلالاً مفيدًا لرموز الفن والثقافة والرياضة وكل الفئات القادرة على التغيير.

وهي مهام ومراحل لا يمكن بحال الاستغناء عن التربويين والدعاة والعلماء، سواء كأفراد أو كمؤسسات.

وفي حقيقة الأمر؛ فإنه هنا لابد من الإشارة إلى الدور المركزي الذي قامت وتقوم به الهيئات العلمائية والإفتائية في العالم العربي والإسلامي خلال جائحة الوباء في تحقيق مستهدفات الطب الوقائي، والتي ربما هي بالفعل فارقة في تقليص حالات الإصابة والوفيات وعدم تحول المرض إلى الصورة الوبائية القاتلة التي رأيناها في المجتمعات الغربية والآسيوية.

إن التوجيه من الآن يتطلب أوراقًا ومواد مرئية ومسموعة تشمل نصائح في مختلف الاتجاهات؛ كيف تستأنف نشاطك الاجتماعي والاقتصادي في مرحلة ما بعد الوباء، ولعل أهمية البدء في ذلك الآن، هو في جانب ربما لا ينتبه إليه أحد، ولكنه على أكبر قدر من الأهمية، وهو إشاعة روح الأمل والتفاؤل في نفوس الناس، وإشعارهم بأن الأزمة إلى انتهاء مهما طال الوقت بها، وهي من أهم وأبرز مهام الإسناد النفسي والمعنوي، والتي هي بدورها من أهم ما يجب القيام به في المرحلة الراهنة.

..*

الأنانية كسلوك إنساني.. كيف كشف «كورونا» عَوْرَاتنا التربوية؟!

تعدَّدَتْ الزوايا التي تناولت بها الإنسانية ومساقاتها المختلفة، الإعلامية والسياسية والعلمية، أزمة وباء «كوفيد- ١٩»، سواء لجهة دراسة الفيروس المُسبِّب له، كورونا المُسْتَجد، وكيفية انتقاله، أو لجهة آثاره على المجتمعات والاقتصاد، وحتى في المجال السياسي؛ حيث ترتَّب على أزمة الوباء، أزمات سياسية في دولٍ ثبُت أنَّ حكوماتها قصَّرت كثيرًا لجهة احتواء انتشاره، أو غياب أية رؤية مستقبلية لها بشأن أزمات مماثلة.

إلا أنَّه في غالب الحال، نجد أنَّ الدراسات والمقالات، والأبحاث التي تتم حتى في المجال الاجتماعي، تتم في الإطار العام، الذي يُعنى بالظاهرة في سياقاتها العامة، فنجد عبارات على غرار «الاقتصاد العالمي».. «الإنسانية التي تضررت».. «مشكلات المجتمعات والأُسَر».. إلى غير ذلك مِن صياغات العموم.

وحتى ما تم توجيهه مِن خطاب على درجة من التخصيص للأسرة أو الفرد؛ فإنَّه ظلَّ في عموم الخطاب، واقترابًا من جانب مراكز الأبحاث والمتخصصين، ولكنَّه لم يتحوَّل إلى أنْ يصبح مجالاً للاهتمام الشخصي من جانب الأسر والأفراد أنفسهم.

فلا نكاد نجد من حولنا أولياء أمور أو مُرَبِّين يبحثون على المستوى الشخصي للكثير من الظواهر السلبية المهمة في الواقع في المجال التربوي والسلوكي، وبحث بعض الأشياء التي أبرزتها أزمة الوباء، وخصوصًا فيما يتعلق بما كشفته عنه العزلة من طبائع وسلوكيات.

ونقول هنا كلمة «كشفته» ولا نقول «أفرزته» أو «أدَّت إليه»؛ حيث إنَّ ما نهتم به في هذا الموضِع من الحديث، قضية الأمراض الأخلاقية والسلوكيات الخاطئة التي كانت كامنة لدى الكثير من الناس، ولكنها كانت مستترة لأنَّه لم تكن هناك ظروفٌ تبرزها.

وهذا للأسف من أخطر وأسوأ الأمور في حياتنا، بالذات لو كان الإنسان على دراية بهذه الطبائع، ويخفيها لأسباب اجتماعية تتعلق بالتظاهر أو ما شابه؛ حيث هي تدخل في هذا الإطار، في باب خديعة الناس والنفس، والنفاق الذي حدده القرآن الكريم بأسوأ ما يمكن أنْ يصلَ إليه الإنسان من مراتب انحراف سلوكي وعقدي.

ولعل الكثيرين قد أصيبوا بصدماتٍ نفسية عندما رأوا المشاهد الشهيرة التي نراها في كل كارثة أو أزمةٍ مفاجئة تحدث في البلدان والمجتمعات التي هي من المفترض الأكثر تعليماً وارتقاءً في ميدان المنظومات الاجتماعية، والعلاقات الإنسانية، ويتهموننا بأنَّنا نحن – العرب والمسلمون – شعوبٌ متوحِّشة متخلِّفة وما إلى ذلك؛ حيث رأينا القوة البدنية فقط – معيار التفوُّق لدى إنسان الغاب والكهف – هي الفيصل بين قدرتك أو عدم قدرتك على الحصول على مستلزماتك من المتاجر والصيدليات!

رأينا سلوكيات غاية في الأنانية، وأبعَد ما تكون لن نقول عن الرُّقي الحضاري والإنساني، بل عن أدنى معايير مفهوم الإنسانية، مع اقترانٍ بالعنف ولو على حساب حياة الآخرين؛ حيث يتطلب الأمر في كلِّ أزمةٍ من هذه الأزمات – أعاصير أو حرائق الغابات والمُدن، بالإضافة إلى الأوبئة مثل كوفيد- ١٩ – نزول قوات الجيش لحفظ الأمن!!

كيف وصل الإنسان إلى ذلك؟!..

في الحقيقة؛ فإنّ الإجابة على هذا التساؤل هو من الأهمية بمكان، لأنَّه يمسَّ أشياء كثيرة مهمة في استقرار المجتمعات، والتي تبدأ بتربية الفرد، وتصل بنا حتى مستوى قضية التضامن العام داخل المجتمع الواحد، والتي هي ضمانة أكيدة لإنقاذه في الأزمات الكبرى التي تهدد وجوده.

وهذا الأمر ليس من قبيل المبالغة، وليس مبدأً أخلاقيًّا، وإنما أثبت علماء الاجتماع والعمران من خلال نماذج وتجارب حالة تاريخية قديمة وحديثة، بدءًا من الدولة الرومانية القديمة، وحتى الدول التي تعرضت إلى الاجتياح النازي في الحرب العالمية الثانية، أنَّه مِن أهم عوامل بقاء الأمم والمجتمعات بالفعل كما تقدَّم.

فهذا الأمر يرتبط بالإعلاء من روح الجماعة التي تُوَحِّد المجتمع، وتحفظ عليه تماسكه في أسوأ لحظاته، وتقيه مِن أنْ يقع في قبضة الأنانية الفردية، التي تُعلي من شأن مصلحة الفرد على حساب مصلحة الجماعة.

فلو أنَّ الأنانية سادتْ؛ لتفتَّتت الثروات، وصارت أجزاء صغيرة لا تنفع سوى أصحابها، بينما أهم عنصر مِن عناصر تطوُّر المجتمعات والأمم، هو التراكم والتجميع الذي يضمن أن تتحول الثروات إلى مبدأ الكل الذي هو أكبر من مجموع أجزائه، فيظلَّ الترس ترسًا، ولا يتحوَّل أبدًا إلى آلةٍ مفيدةٍ قادرةٍ على العمل والإنتاج.

كما أنَّ الأنانية الفردية إذا ما سادت؛ فإنَّها تعني حبس الثروات الموجودة لدى أصحابها، بينما يضيع الضعفاء والمحتاجون، وقد يموتون، بينما هناك ما يمكن أنْ ينقذ حياتهم لدى أصحاب الثروات، ولكن هؤلاء أنانيون، لا يمدُّون إلى غيرهم يد المساعدة.

نقول إنَّ هناك عوامل عديدة أوصلت الإنسان إلى هذا المستوى، من بينها سيادة نموذج الحضارة الغربية الذي يُعلي من قيم المادة ومبدأ النفعية والفردانية على حساب ما عداها من قيم إنسانيةٍ أخرى.

وهذه الأمر لم يقف عند حَدِّ الجوانب الاقتصادية أو حتى السلوك الجمعي المجتمعي، وإنما انساح حتى إلى مستوى التربية بالمفهوم المتَّبع في المدرسة والأسرة؛ حيث يكشف هذا السلوك عن وجود قصور كبير في البرامج المعتمدة في المحاضن التعليمية، وأنها تغفِل الكثير من الجوانب السلوكية والتربوية، وبالتالي؛ فإنَّها أصبحت – هذه المشكلات – قائمة في مفاهيم الأسرة عند تربية الأطفال؛ حيث المحاضن التعليمية هي الجذر والأساس الذي تستند إليه المنظومة التربوية في المجتمع بالكامل، حتى في المحاضن والمنصَّات الأخرى.

وللأسف الشديد، فإنَّ مرض الأنانية هذا، قد انتقل إلى مجتمعاتنا العربية والمسلمة، بعد عقودٍ طويلة من الغزو الفكري والثقافي، وهيمنة الحضارة الغربية بقيمها المُشار إليها، وباتت الفردانية هي أساس حياة قطاعٍ عريض من الأجيال الأحدث في مجتمعاتنا، وصارت المصلحة الفردية هي معيار تقييم أي فعلٍ أو سلوك.

....

....

وفي حقيقة الأمر؛ فإنَّ السلوك الوعظي بات لا يكفي في مواجهة هذه الآفة؛ حيث إنَّ الأمر – كأية ظاهرة اجتماعية – متشابك في علاقة تأثير وتأثُّر متبادَلة مع المنظومات الأخرى، مثل الإعلام والثقافة، وصولاً حتى إلى النمط العام الذي يرسِّخه النظام السياسي الحاكم، للقيم والمفاهيم داخل المجتمع.

وعلى شيوعه واتساعه، في مقابل غياب نموذج متكامل، قوي وجاذب يستعيدنا إلى جادتنا القديمة وهويتنا وقيمنا؛ فإنّه – بالتالي – الأمر أكبر مِن أنْ نقول إنه بيد الدعاة والتربويين فحسب، ولكن على الأقل؛ فإنَّ الخطوة الأولى، هي – حتماً – يجب أنْ تكون من عندهم!

..*

الرأسمالية وعام الكورونا..
كيف قادتنا منظومة الجَشَع إلى ما نحن فيه!

من بين المفردات التي لفتت الانتباه إليها على منصات التواصل الاجتماعي في وصف جائحة وباء كوفيد_١٩ التي تمر بها الإنسانية كافة في هذه الفترة، مفردة «عام الكورونا»، والتي اصطكها كاتب وتربوي فلسطيني، هو سليمان أبو عودة.

التشبيه قادم من «عام الرمادة» الذي عانى منه مسلمو شبه الجزيرة العربية خلال عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي اللهُ عنه) من واحدةٍ من أسوأ المجاعات في التاريخ.

وفي الحقيقة، فإن الأمر أقرب ما يكون بالفعل إلى عام رمادة كبير عمَّ العالم بأسره، ولئن كان وقت «عام الرمادة» الحقيقي، كان مسلمو وعرب شبه الجزيرة في حينه على بيِّنةٍ من أنه سوف ينحسر وينتهي بحلول موسم الأمطار الجديد؛ فإن الإنسانية الآن تعيش عام رمادة لا تعرف كيف ينتهي، ولا متى ينتهي.

ولكن. ما الذي قادنا إلى ما نحن فيه الآن؟.. هل هو الفيروس الغامض الذي يجتاح العالم، ويصيب ويقتل الناس، أم أنها – في جذر الأمر حقيقةً – الظروف التي تحياها الإنسانية، وصدمها فيها قطار الفيروس؟

المنطق العام للأمور، بل إن العلم التجريبي الصارم أيضًا، يقولان بأن المرض في حد ذاته ليس هو المشكلة، فالإنسان إذا ما كانت مناعته قوية، يستطيع أن يواجه نفس المرض الذي قد يقتل آخر ذا مناعةٍ ضعيفة.

وفي حال «عام الرمادة»؛ فإن المجاعة لم تكن تحدث لو أن الناس كانوا قد ادخروا من حبوبهم ومحاصيلهم ما يقيهم شرَّ الفاقة طيلة ذلك العام، كما فعل المصريون وقت نبي اللهِ يوسف «عليه السلام»؛ حيث إنهم واجهوا سبعًا عجافٍ بما ادخروه في سُنْبُلِهِ كما أخبرنا القرآن الكريم في السورة التي تحمل اسم نبي اللهِ.

وبالتالي؛ فإن الإشكال الرئيسي ليس في المرض، وإنما في الظروف التي يواجهها الإنسان أو المجتمع في حال حدوث أزمة أو جائحة أو ما شابه.

وعندما نتكلم كذلك عن «عام الكورونا»؛ فإنه ليس الأهم هو الإصابات والوفيات – على احترامنا للنفس الإنسانية التي قدَّسها الإسلام –؛ حيث في النهاية؛ الأرقام المتعلقة بالإصابات والوفيات، لا تزيد كثيرًا عن الأرقام السنوية لأزمات ومشكلات مزمنة، مثل حوادث الطرق والملاريا والسرطان والمجاعات والهجرة غير المشروعة، وإنما الأهم في هذه التضاعيف هو الأثر الاجتماعي والاقتصادي، وهو العمق الحقيقي للأزمة التي قادنا إليها فيروس كورونا المستجد.

ومن ثَمَّ؛ فإنه مع أهمية البحوث المبذولة في المجال الطبي والجهود المبذولة في القطاع الصحي؛ فإنه من الأهمية بمكان أن تعمل الإنسانية على البحث في الأسباب التي قادت إلى التضاعيف الاقتصادية والاجتماعية للجائحة.

ونقف هنا عند حقيقة مهمة، وهي أن الإطار العام الذي ضربتنا فيه هذه الآثار والتضاعيف، إنما هو إطار الرأسمالية التي تحكم المنظومة الاقتصادية، وبالتبعية

الاجتماعية، على مستوى العالم، والتي هي نبتٌ غربي بدأ في الهيمنة على عالمنا منذ أن بدأت حركة الكشوف الجغرافية في القرن الخامس عشر الميلادي، والتي كانت الأساس الذي كوَّن نظرية «دعه يعمل.. دعه يمر» الشهيرة، ونظريات آدم سميث الخاصة بحركة رأس المال، والتي سادت العالم بالمعنى الحرفي للكلمة منذ القرن الثامن عشر الميلادي.

فحركة الكشوف الجغرافية نهضت في الأصل للبحث عن موارد خام جديدة، وفتح أسواق جديدة، وتطوير طرق الملاحة العالمية لخدمة حركة التجارة من وإلى أوروبا، ثم الأمريكيتَيْن، مع باقي أنحاء العالم.

وبلغت سطوة هذه المنظومة أنه، حتى البلدان التي تتبنى منظومات سياسية واقتصادية واجتماعية مختلفة، تنهض على أسس من الاعتزاز القومي، والمُكَوِّن الحضاري الأقدم، مثل الصين وروسيا واليابان والهند، لم تستطع استكمال جوانب سطوتها الدولية إلا من خلال الانخراط في منظومة الرأسمالية العالمية، في صورة اتفاقيات وعضوية مؤسسات، أهمها صندوق النقد والبنك الدوليَّيْن ومنظمة التجارة العالمية.

وكما نرى من حولنا؛ فإن الرأسمالية ليست وحشًا اقتصاديًّا فحسب، وإنما هي منظومة من القيم والسلوكيات التي شكَّلت العالم وتغيِّر فيه باستمرار وفق منظومة القيم الغربية في المجال الثقافي والاجتماعي، وهي أهم منظوماتنا؛ حيث باقي المنظومات الأخرى، الاقتصادية والسياسية، إنما هي لخدمة هذا المجال: مجتمعاتنا، بهويتها وأفكارها ومنظوماتها الحياتية اليومية والعامة.

والرأسمالية بحر هادر، اجتاح حتى أعتى حصون الخصوصية، وفرض نفسه عليها، كما في الصين، التي هي أمة ذات هوية راسخة، وحصَّنتها الطبيعة بحصونها من مختلف الجهات كما تخبرنا خرائط الجغرافيا السياسية والطبيعية عنها.

ولننظر فقط إلى عامل شكَّلته الرأسمالية، وجعلته مرتكزًا أساسيًّا ليس في المجال الاقتصادي فحسب، وإنما أمرًا متجذِّرًا ومتحكِّمًا في كل شيء في مجتمعاتنا. وهو عامل الربحية الذي بات يَجُبُّ كل ما عداه من قيمٍ، وفوق كل مسعىً آخر من مساعي الإنسان في الحياة.

من المعلوم لكل قارئ متوسط الثقافة العامة حتى، وليس للمتخصصين فحسب، أن أسوأ كوابيس العالم في زمننا المعاصِر في المجال الطبي والعام، هو تكرار جائحة الأنفلونزا الإسبانية التي ضربت العالم بين العامَيْن ١٩١٨م و١٩١٩م، وأدت إلى وفاة ما بين ٤٠ إلى ٥٠ مليونًا من البشر وفق تقديرات سابقة، وارتفع هذا الرقم إلى نحو مائة مليون وفق تقديرات أكثر دقة تمت في العقدَيْن الماضيَيْن.

ولم ينجُ بلدٌ منها وقتئذٍ، وكانت بنفس ظروف وباء كوفيد-١٩ الحالي، سواء في طبيعة الفيروس وأثره - أحد فيروسات الأنفلونزا ولكنه يضرب كذلك الجهاز المناعي - أو فيما يتعلق بمعدلات الانتشار.

أي أن الكارثة كانت متوقَّعة، مع اختلاف ظروف الانتشار؛ حيث لا نحيا الآن في عالم الحرب العالمية الأولى، كما أن عناصر النظافة الشخصية والوعي المجتمعي والتقدم الطبي؛ كلها عوامل حالت دون تكرار الكارثة بذات حجمها الإحصائي.

ولكن.. كيف تصرفت شركات الأدوية العالمية؟.. تعتبر البحوث الطبية من بين أهم أنشطة شركات الأدوية، والتي تهيمن على سوق هو الأضخم في حجمه بعد سوق تجارة السلاح، وتفوق المخدرات وتهريب الآثار والجاسوسية العلمية، بل إن الأخيرة جزءٌ مهمٌّ من أنشطتها يتم في حقول البحوث الطبية وصناعة الأدوية.

وفي ظل ما تحققه هذه الشركات من أرباح، وغالبيتها في الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية، والتي هي رأس حربة المنظومة الرأسمالية العالمية، وهي مبتدعتها في الأصل؛ فإنها تحرَّكت في أبحاثها، وفي إنتاج الدواء، بخلاف المطلوب؛ حيث توجَّهت إلى المجالات الأكثر ربحية.

ومؤخرًا ذكرت صحيفة «الجارديان» البريطانية، أن كبرى شركات الأدوية في العالم، وعددها ٢٠ شركة، رفضت اقتراحًا قبل سنوات لتسريع إنتاج لقاحات مشابهة لما هو مطلوب لمجابهة عائلة فيروسات «كورونا»، لأنها أقل ربحية من الخاصة بالحالات الطبية المزمنة، وأنها – أي هذه الشركات - عمِلَت على نحو ٤٠٠ مشروع بحثي جديد في العام ٢٠١٩م، الماضي تركز نصفها على علاجات لأمراض السرطان [«الأنباء» الكويتية ومصادر أخرى – ٢٥ مايو ٢٠٢٠م]

وذكرت الصحيفة أيضًا أن هذه الشركات رفضت اقتراحًا من الاتحاد الأوروبي من خلال «مبادرة الأدوية المبتكرة» (IMI) وهي شراكة بين القطاعين العام والخاص تتمثل مهمتها في دعم أحدث الأبحاث في أوروبا، قبل ثلاث سنوات، من أجل العمل على تسريع إنتاج لقاحات لأمراض مشابهة لفيروس كورونا المُستجد للسماح بتطويرها قبل حدوث تفشٍّ لأحد تلك الأمراض، كما حدث اليوم مع كوفيد_١٩.

وهذا مظهر واحد، مظهر آخر من مظاهر أثر تكريس الرأسمالية لمفهوم الربح على كل ما عداه من أمور، قضية العمل.

من المعروف أن العمل هو أحد عناصر أو عوامل الإنتاج الأربعة وفق النظرية الرأسمالية، بجانب عناصر المواد الخام والتنظيم (الإدارة) والأرض.

ونحن نرى في حياتنا، وبالذات في المجتمعات الفقيرة، كيف تحول مجال العمل إلى مجال للعبودية والسخرة المقنَّعة؛ حيث يتم استهلاك جهد الإنسان وصحته، بل وعمره ذاته، نظير أجرٍ ضئيل، ومن دون أبسط قواعد التأمين الاجتماعي والصحي، وإن حدث؛ فهو في أضيق الحدود.

وبالتالي، عندما فاجأت المجتمعات الإنسانية جائحة من هذا النوع، فرضت إجراءات صارمة من العزل والتباعد الاجتماعي؛ لم يكن مئات الملايين على أي قدرٍ من الاستعداد لهذه الظروف، بمدخرات أو ما شابه.

جانب آخر من وحشية الرأسمالية في هذا الجانب، هو الضغط على العامل الواحد لكي يقوم بمهام عاملَيْن أو ثلاثة، أو توظيف الآلة محل الإنسان، وبالتالي؛ زادت البطالة بصورة كبيرة، فحدث ذات الأثر السابق بالنسبة لمئات الملايين من العاطلين عن العمل أو أصحاب العمالة اليومية، أو «الأرزُقِيَّة» بلُغة أهل مصر.

.....

إننا في واقع الأمر، لا نواجه جائحة في المجال الصحي، وإنما فوجئنا بأننا أمام جائحة أخلاقية، واللافت في ذلك أن العامل الوحيد الذي منع تحوُّل هذه الآثار إلى كوارث أكبر، هو عنصر التكافل الاجتماعي، وكما نعلم؛ فإن الإسلام سبق بها المنظومات الأخرى، بصورة شديدة التقدمية؛ حيث تتضمن منظومة التكافل الاجتماعي في الإسلام:

- تشريعات واضحة، جعلته من أركان الإسلام ذاتها، لأن فيها – المنظومة التكافلية – الزكاة نفسها، بجانب منظومة الصدقات، والتي منها ما هو موسمي منتظم، مثل زكاة الفطر، أو الصدقات بشكل عام.

- تعضيد الروابط المجتمعية، والتي هي في الإسلام ضمن منظومة الفرائض وليس المُستحبَّات فحسب، مثل صِلَة الأرحام، وجعْل التكافل الاجتماعي أحد أهم أدوات ذلك.

- التشجيع بشتَّى الصور على العطاء، واعتباره تجارةً مع اللهِ تعالى، وأحد أبواب الثواب العظيم في الدنيا والآخرة.

- أتت دولة النبوة والخلافة الراشدة، والتي سار عليها بعد ذلك سائر الدول المسلمة، بمنظومة مؤسسية واضحة لذلك، مثل باب توزيع الغنائم، و"بيت المال"، والذي كانت مخصصاته تخرج للمسلم وغير المسلم من رعية الدولة الإسلامية.

ومع كونها منظومة عقدية وأخلاقية ومؤسسية متكاملة، فقد تكرَّس التكافل الاجتماعي كثقافة، بل وفريضة مجتمعية، بحيث إنك لا تستطيع أن تقول لجارك الفقير الذي يطلب منك المعونة «لا»، بل تبادر أنت إليه.

وحتى عندما طوَّرت الرأسمالية نفسها لتفادي الانهيار أمام الثورات العمالية والاضطرابات الاجتماعية والتي كانت قد بدأت تظهر في روسيا وإنجلترا في نهايات القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وظهر مذهب «الرأسمالية المجتمعية»؛ فإنها ما أتت إلا بمنظومة مشابهة لمنظومة التكافل الاجتماعي التي أبدع فيها الإسلام ونظَّمها بشكل مفصَّل لم تسبقه إليه أمة أو نظرية أخرى بذات الصورة.

.....

.....

وفي الأخير؛ فإننا - كبشر - بحاجة إلى مراجعة أنفسنا ومنظوماتنا القيمية والأخلاقية، قبل أن نتكلم عن بحوث اللقاح والمصل، والتجارب السريرية على علاجات الكورونا المُسْتَجَد!

..*

حول أهمية الاستشراف المستقبلي ووضع السيناريوهات المختلفة عند اتخاذ القرار

مع التعقيد الكبير الحاصل في مفردات الحياة البشرية، وفي ظل التداخُل الكبير الحادث بين مختلف مساقات حياتنا، بين ما هو اجتماعي وما هو ثقافي أو سياسي، وغير ذلك؛ فإنه بات من الضرورة بمكان أن يعمل الإنسان إذا ما أراد أن يتصف بسِمَة الرشادة، وأنْ يحقق نجاحات في حياته، ويحياها بكرامة وإنجاز؛ أن يعمل وفق قواعد التخطيط والتحرُّك السليمة التي أقرتها العلوم الاجتماعية، والتي منها العلوم الإدارية والسلوكية.

ومن بين أهم المجالات التي اهتمت بها الأمم الناهضة في عالمنا المعاصِر، هي الدراسات الاستشرافية، والتي تهدف إلى وضع تصورات مستقبلية، إما لتطوير ما هو قائم في مجال ما، أو لتوقُّع أمرًا ما جديدًا سوف يحدث في هذا المجال، سواء لأجل تعظيم الاستفادة منه إن كان إيجابيًّا، أو لمواجهته إذا ما كان سلبيًّا، مثل توقُّع حدوث وباءٍ أو ما شابه.

ومن المعروف أن الدراسات الاستشرافية، إنما هي مِن أشقِّ مجالات التخطيط؛ حيث إنها لا تخضع لتقييمات دقيقة بالقدر الكافي الذي يضمن نجاح هذه الإستراتيجية المستقبلية، وإن خضعت؛ فإنَّ عاملاً واحدًا مفاجئًا، مثل أزمة اقتصادية غير متوقَّعة

بسبب انخفاض/ ارتفاع أسعار المواد الخام، أو وقوع حرب كبيرة، أو وفاة سياسي كبير، أو حدوث عائق مفاجئ غير مُنْتَظر، مثل جائحة كورونا المستجد الحالية؛ نقول إنَّ عاملاً واحدًا بهذه الصفة، سوف يؤدي بكل تأكيد إلى تغيُّر كامل في خريطة التوقعات.

وقد يقود ذلك إلى تفاقُم حالةٍ ما أو أزمةٍ ما؛ حيث إنه وقتها، سوف يواجهها الفرد/ المجتمع/ الدولة، من دون استعدادٍ كافٍ.

ولعل أغرب ما يمكن أنْ يتصوَّره غير المتخصص في هذا الأمر، هو أنَّ الدراسات الاستشرافية المستقبلية، إنما تُوضع ليس بناءً على تصور واضح ودقيق للواقع فحسب، وإنما للماضي كذلك، من خلال دراسة نماذج حالة سابقة لذات المجال أو الموقف الذي نسعى إلى وضع تصوُّر مستقبلي سليم لأجله؛ حيث يمكن بشيء من الدقة، رسم سياسة واضحة يمكن أخذ القرارات بناءً عليها من خلال هذه النماذج الماضية.

وفي حقيقة الأمر، تزداد أهمية هذه النوعية من الدراسات وما ترتبط به من نَواحٍ في الفهم والمدارك، بالنسبة للأفراد؛ حيث إنَّه في حالة المجتمعات والدول، يعمل مبدأ «الكُل أكبر من مجموعة أجزائه»، ويمكن لجزء أنْ يحمل أعباء جزءٍ آخر، ويعاونه في موقفٍ مفاجئ أو في أزمةٍ ما، أمَّا في حالة الفرد، فإن فوائد الاستشراف المستقبلي السليم، قد تمثِّل في لحظةٍ ما، الفارق بين الحياة والموت.

وهذه الأمور ليست بخافية على الحركة الإسلامية، والتي حاولت منذ عقود قليلة مضت، تطوير رؤى ومدارك أبناء الحركة وأبناء المجتمعات التي تتحرك في إطارها، من أجل تحديثها، وإدخالها عصور الحداثة وما بعدها، سواء على المستوى المفاهيمي، أو على المستوى التطبيقي.

وكان من بين ما اهتمت به هذه النوعية من الدراسات، الدراسات الاستشرافية، ولكن واجه مفكرو ومنظِّرو الصحوة الإسلامية بعض النواحي التي كان ينبغي الوقوف أمامها لضبطها بالضوابط الشرعية.

فمثلاً، يقول الدكتور هاني بن عبد الله الجبير، في كتابه «من معالم المنهجية الإسلامية للدراسات المستقبلية»، إنَّ الدراسات المستقبلية، علم حديث، وهو مع حداثته، ينضوي تحت العلوم التي صيغة صياغةً غربيَّة، في إطار ثقافة الغرب العلمانية، ولأجل أنْ تحقق الأمة المصلحة من هذا العلم؛ فلابد أنْ تُصاغ هذه الدراسات على أساس التصوُّر الذي ينسجم مع هوية الأمة وتطلعاتها، كما لابد أنْ تنضبط بضوابط الشريعة الإسلامية» [الفصل الثالث: ضوابط وموجِّهات للدراسات المستقبلية، ص ٦٣].

ويضيف أنه، لمَّا كانت الدراسات المستقبلية تقع في ميدان الثقافة الاجتماعية؛ فإنَّ دور الشرع فيها، هو النقد والتهذيب وبيان الضوابط، ولكنه من جهةٍ أخرى، يقول إنَّه لا ينبغي أنْ يقود ذلك إلى حالةٍ من القطيعة مع كل منتجات الغرب في هذا المجال؛ حيث إنه «مع أنَّ الحذر الذي يحرِّض على الإبداع في مناهج بديلة تتلافى ما في المناهج التي وضعها غير المسلمين من عيوب ومخالفات، مطلوب ومُتأكَّد؛ لكنه لا يمنع الاستفادة من تلك المناهج والأساليبَ إذا ضُبِطَت بالضوابط الشرعية حتى تُوجَد المناهج البديلة وتنضج».

في الجانب العملي، بجانب المحاذير الشرعية؛ فإنَّ هناك نقطة مهمة ينبغي تفاديها عند الحديث عن الدراسات المستقبلية، وهي أنَّها تختلف تمامًا عن التنبؤات غير ذات موضوع، أو التي لا تتم على أسس وقواعد علمية سليمة.

فالاستشراف المستقبلي، مفهوم علمي، وبالتالي؛ فإنَّ له أدواته التي تضمن تحقيق أكبر قدرٍ من الدقة في التوقُّع، من خلال منهجية سليمة في التفكير والتخطيط.

وبالتالي؛ فإنَّ المنتجات النهائية لوِرَش العمل وجلسات العصف الذهني «Brain Storming»، لا تكون عبارة عن تنبؤات حَدَسِيَّة، وإنما تكون أقرب ما تكون إلى إقرار واقع ولكنه سوف يصبح واقعًا مستقبلاً.

ويساعد على الوصول إلى هذه الدرجة من الدقة، أنْ يعمل الإنسان/ المؤسسة/ الحكومة/ المجتمع.. إلخ، على وضع أكثر من سيناريو للموقف المطلوب التعامل معه مستقبلاً.

وفي هذا الإطار، يميِّز الخبراء أيضًا بين الاستشراف المستقبلي ودراساته، وبين التخطيط الاستراتيجي؛ حيث إنَّ دراسات الاستشراف المستقبلي، تُعنى بوضع احتمالات ما قد يكون عليه أمرٌ ما في المستقبل، مع ترجيح أي الاحتمالات أقرب للحدوث، ولكن من دون يقينٍ كامل بهذا الاحتمال.

أما التخطيط الإستراتيجي، فإنه يتعلق بتحديد أهداف بعينها سعيًا لتحقيقها، ولكن هذا لا يمنع أن الدراسات المستقبلية يمكن أن تساعد في توجيه المُخَطِّط الإستراتيجي، والعكس صحيح؛ حيث إن التخطيط الإستراتيجي يمكن أن يخدم - من خلال المعلومات الدقيقة، والتقييم السليم للواقع - الذين يقومون على إعداد الدراسات المستقبلية.

وبالتالي؛ فإن التعاون بين المجالَيْن، شديد الأهمية في تحقيق النجاح المطلوب هنا أو هناك.

.....

وفي الأخير؛ فإنَّ هذا الأمر أكثر عمقًا بكثير من أنْ يتم استيعاب قواعده وعلومه في هذا الحيِّز- ولكن تبقى أهمية هذا الموضِع من الحديث، هو تكريس أهمية أن يكون هذا

الأمر في حسبان الجميع، أفرادًا ومجتمعات، والحركة الإسلامية وأبناؤها ليسوا استثناءً في هذا الإطار، بل إنَّه في ظل انحرافات كثيرة، وتراجعات كبيرة حدثت في السنوات الماضية، بات كلا المجالَيْن، الدراسات المستقبلية والتخطيط الإستراتيجي، على أكبر قدرٍ من الأهمية والأولوية.

..*

على هامش الكورونا..
أزمة الوعي وحصاد صناعة منظوماتنا السياسية والاجتماعية

من بين أهم الظواهر التي فجَّرتها جائحة كوفيد-١٩، قضية وعي الشعوب، الذي لم يكن في غالب دول العالم على قدر مستوى الحدث مما سمح للبشرية بأن تعرف أزمة لم يكن أحدٌ ليتصوَّر - في عصر العلم والعقل وغزو الفضاء - أن يتعرض لها عالم القرن الحادي والعشرين.

أُصيبت الحياة بالشلل، واختفت المنتجات الأساسية من على أرفف متاجر أكثر الدول وفرة في الإنتاج، بل وفي أعتى الرأسماليات التي اخترعت نظرية الإنتاج/ السوق التي تحكم الاقتصاد العالمي منذ حركة الكشوف الجغرافية التي بدأت في القرن الخامس عشر الميلادي.

وكما سبق أن تناولنا في مواضع سابقة من الحديث؛ فإن الأزمات التي رافقت تفشِّي فيروس كورونا المُسْتَجد، لا تعود لطبيعة الفيروس والمرض أو الوباء الذي تسبب فيه، وإنما لطبيعة المنظومات الاقتصادية والاجتماعية التي تتحكم في تصورات البشرية لحياتها، سواء في المجال العام، أو على مستوى حياة الأفراد والمجتمعات.

فهذه المنظومات خلقت بدورها منظومة من الظروف منعت الإنسان العادي، ومجتمعات ودول كبرى حتى، من أن تواجه الوباء بالكفاءة اللازمة.

فمثلاً رأينا أنَّ طغيان مفاهيم الربحية والرأسمالية المتوحشة، وقفت خلف ظواهر مثل استغلال الشركات الخاصة للعُمَّال والموظَّفين، بأدنى مستوىً من الرواتب، مما منع هذه الشريحة من الناس التي تشكل الغالبية الساحقة من المجتمعات، من أن تتعامل مع هذه الأزمة طويلة المدى.

كذلك رأينا أن الإعلاء من قيمة الربح على حساب قضايا الإنسانية، في عدم توجيه الاستثمارات الكافية للأدوية والمستحضرات الطبية التي تتعلق بهذه النوعية من الأمراض التي كان من المعروف أن لها دورة حتمية سوف تمر البشرية بمرحلة مدمرة منها عمَّا قريب، بسبب أن شركات الأدوية فضَّلت توجيه استثماراتها إلى ما يمكن أن نطلق عليه أدوية الأثرياء، مثل علاجات السُّمْنَة والسرطان وأمراض الجهاز الهضمي.

وهذا وثَّقناه بالتقارير والأرقام، وكذلك يؤكده الحدث.

إلا أن هناك زاوية أخرى شديدة الأهمية كشف عنها الوباء مع طول أمده، تتعلق كذلك بأثر المنظومات التي تهيمن على الحياة الإنسانية، بما في ذلك الأنظمة السياسية الحاكمة وكذلك المنظومات الاجتماعية والإعلامية وما يتصل بقضية تأهيل الإنسان في المجال الفكري والسلوكي.

شهدت الأزمة مُرَّ الشكوى من كثيرٌ من حكومات العالم، ومن شرائح اجتماعية من المثقفين والمتعلِّمين من سلوكيات الكثير من الناس التي عكست حالة من ضعف الوعي بل وغيابه في كثير من الأحيان، والتي تسببت في أزمات كثيرة إضافية بفعل الوباء، وفي زيادة طول أمد الأزمة مما رتَّب الكثير من التكاليف الاقتصادية المُضَاعَفة، وهي التكاليف الأسوأ والأعمق أثرًا للوباء.

بل إنه، ومن خلال تقارير منظمات دولية موثوقة، مثل الأمم المتحدة ومنظمة الصحة العالمية التي تُعتبر إحدى المنظمات المتخصصة التابعة لها، وكذلك تقارير حكومات ومؤسسات بحثية غربية؛ فإن الوباء في الأصل نشأ وانتشر، وزادت تكاليفه الاقتصادية والاجتماعية بسبب ضعف الوعي، سواء في بلد المنشأ، الصين، أو في دول حتى من المفترض أنها تتمتع بمنظومات إعلامية وتعليمية وثقافية من الأرقى في العالم.

فهذه الظاهرة، ظاهرة ضعف الوعي، خلافًا للشائع، لا تقتصر على عالمنا العربي أو دول العالم الثالث والأقل تقدُّمًا، بل ربما أثبتت بعض هذه البلدان والمجتمعات وعيًا أفضل من بعض المجتمعات الغربية، على النحو الذي رأيناه في تونس والأردن والمغرب والكويت وسلطنة عُمان؛ حيث وصلت بعضها بالفعل إلى نسبة صفر إصابات بسبب التزام المواطنين بتعليمات السلامة والأمان الموضوعة من الحكومات هناك.

فالوباء وأوبئة أخرى كثيرة، نشأت من قبل في الصين بسبب عدم وعي المواطنين في المناطق الريفية هناك بالكثير من النواحي المتعلقة بعائلة فيروسات الأنفلونزا، وهي الأخطر عبر التاريخ، خلافًا للشائع، بسبب خاصية تملكها، وهي تمتُّعها بالقدرة على تغيير صفاتها الجينية، وقدرتها على التحوُّر من عائلٍ إلى آخر، إنسان أو حيوان، بما يمكِّنها من الإفلات من الأدوية والعقاقير الطبية التي يتم تطويرها لمواجهتها.

فإلى الآن؛ لم يصل مجموع مَن ماتوا جراء أوبئة بكتيرية مثل الطاعون، أو فيروسية مثل الإيبولا والملاريا، وعبر التاريخ، إلى مجموع مَن ماتوا في جائحة الأنفلونزا الإسبانية التي ضربت العالم في العام ١٩١٨م، وتسببت في عشرات الملايين من الوفيات ونحو مائة مليون بين إصابات ووفيات.

بل إنه مما لا يعرفه عوام الناس، أن الأنفلونزا الموسمية تقتل سنويًّا عشرات الآلاف من الأشخاص عبر العالم.

وبالعودة إلى جائحتنا الحالية، فإنه في إيطاليا، التي تُعتبر واحدة من أسوأ البلدان التي عرفت تفشيًا للمرض بحوالي ٢٤٠ ألف حالة إصابة، و٣٥ ألف وفاة، أثبتت التقارير الموثوقة أن سبب انتشار الوباء كان التفاف المواطنين على تعليمات الأمان والسلامة الحكومية في بداية الجائحة، و"تسربهم" أو "تسللهم" – بالمعنى الحرفي للكلمة – إلى الشواطئ والمتنزهات.

نفس الموقف في إسبانيا وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة، وهي – حرفيًّا – أكثر دول العالم تطورًا في المجال الصناعي والصحي، وفي المجال الثقافي والتعليمي كذلك؛ حيث كان ضعف وعي المواطن، وعدم التزامه بتعليمات السلامة والأمان، بل وتعمُّد الالتفاف عليها. هكذا تقول حكوماتهم في تقاريرها الرسمية!

ومما يدل على أن نقطة الوعي بالفعل هي من أهم ما يكون كعامل أمان في مثل هذه الحالات، أن الدول الإسكندنافية، ودول أخرى مثل ألمانيا والنمسا واليابان وكوريا الجنوبية، وهي – وفق تقارير منظمات دولية عديدة مثل "اليونسكو" – تُعتبر صاحبة تجارب أكثر تقدمية في مجال التعليم وصناعة وعي المواطن والتنمية البشرية بشكل عام؛ استطاعت في وقت قياسي أن تتجاوز الجائحة بأقل الخسائر.

بل إن دولاً مثل فنلندا والسويد، وهي من بين أفضل دول العالم في هذا المجال، لم تطبِّق في الأصل أية إجراءات احترازية بالمعنى المعروف، وقام المواطنون من أنفسهم بالاستجابة الرشيدة المطلوبة في مثل هذه الحالات، مما جعلها خارج دائرة الأزمة الاقتصادية التي رافقت الوباء.

مظهر آخر من مظاهر غياب الوعي بسبب المنظومات السياسية والاجتماعية الموجودة، نجده في حالة التكالب غير المبرَّر على أسواق الأدوية والمواد الغذائية، والتي أفرغت حرفيًّا أرفف متاجر وصيدليات دول الوفرة في عالم الرأسمالية المعاصرة، مثل بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا.

الدول التي عانت من ظاهرة ضعف أو غياب الوعي لدى المواطن في عالمنا العربي؛ فإن الأزمة الأساسية تكمن في سياسات الحكومات والأنظمة الحاكمة.

فهذه الأنظمة عندما أرادت أن تضمن لنفسها أن تحكم في هدوء، ومن دون ممانعة كبيرة من مواطنيها، سعت إلى تجهيلها، بحيث تغيب عنها المفاهيم الأساسية للحقوق والواجبات لدى الدولة ومنظومة الحكم، فلا يطالبون بشيء.

فنجد تخلُّف التعليم، وسياسات إعلامية تقود إلى كارثة عقلية لمدى متابعيها، مما جعل بلدانًا حضارية قديمة مثل مصر التي لها الريادة في مجال التنوير والعلوم والتشريع في الشرق والعالم القديم كله، تعاني من مشكلة ضخمة في موضوع انتشار الوباء بسبب ضعف وعي المواطن لدرجة أنه عندما بدأت دول العالم التي تشهدت التَّفشِّيات الأضخم للوباء، تبدأ في محاصرته، والقضاء عليه؛ فإن وتيرة الإصابات والوفيات ترتفع فيها.

وهذا حتى اعترفت به الحكومة المصرية في أكثر من موقف وتصريح رسمي، وفي حملات التوعية التي تقوم بها، وللمرة الأولى ربما في تاريخ البيروقراطية المصرية؛ لا يمكن تحميل الحكومة الحالية وحدها مسؤولية هذه المشكلة؛ حيث إن إجراءات الأزمة في مصر على مستوى الحكومة، مقبولة إلى حدٍّ كبير، وفق تقارير منظمة الصحة

العالمية التي لم تبدِ الكثير من الملاحظات على أداء الأجهزة الرسمية المصرية، وإن كانت الحكومة الحالية تتحمل ميراثًا ضخمًا من آثار خطايا سابقاتها.

.....

.....

وفي الأخير؛ فإنه بشكل عام، فإن هذه الأزمة ذات الطابع الشامل والعميق في طبيعتها وتأثيراتها، قد أفرزت الكثير من الظواهر التي ينبغي للبشرية بالكامل أن تقف أمامها، وأن تعيد فيها حساباتها، وبالذات فيما يتعلق بالجوانب المتصلة بمدى نضج العقل الإنساني، وتطور السلوك البشري، ومدى رشادته في استجاباته للمواقف المختلفة؛ حيث إن هذه الأمور هي المعيار للتقدُّم/ التخلُّف الحضاري، فالأمم التي صنعت أسرع سيارات وطائرات الأرض؛ هي أكثر الأمم التي انتشر فيها فيروس كورونا بسبب ضعف وعي مواطنيها!

..*

في ضوء كورونا.. كيف نقرأ آية «ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ»؟

من بين أهم الحقائق التي ينبغي أن تُوقِر كعقيدة في ضمائرنا كمسلمين، وثبتت كحقيقة لدى سائر أبناء الجنس البشري من مقتضى واقع ما عاشه عبر قرون طويلة من مكوثه في هذه الأرض، هو أن لكلِّ شيءٍ وجهَيْن، إيجابي وسلبي، وأنه مهما بلغ من «عُلوِّ» شأن الإنسان في ناظرَيْه؛ فهو يبقى كائنًا ضعيفًا لا يعلم شيئًا، وما يعلمه؛ إنما هو ما شاءت حكمة اللهِ تعالى له أنْ يعلمَه.

لكنَّا، وكما أخبرنا القرآن الكريم بكل ذلك، أخبرنا أيضًا بأنَّه من أبرز سمات الإنسان، الغرور ونسيان دروس الأحداث وعِبَر الحوادث التي يمرُّ بها أو يجدها مكتوبة في أوعية الحفظ المختلفة التي تسجِّل لنا ما مرَّ وما نمرُّ به، وما مرَّت وما تمرُّ به مجتمعاتنا والإنسانية بشكل عام.

والحقيقة أننا نجد الكثير من ذلك في جائحة وباء «كوفيد- ١٩» التي تمرُّ بها الإنسانية، وأهم ما وجدناه فيها، هو طمأنينة النفس إلى أننا على دين الحق، وأن القرآن الكريم هو من لدن خالقنا الحكيم العليم؛ حيث صادق الواقع وصادفتْ الحوادث الكثير من الأمور التي وردت في القرآن الكريم.

وهذا جزء من عقيدتنا ويقيننا بأنَّ القرآن الكريم هو من عند اللهِ تعالى، الذي خَلَق وصرَّف أمور هذا الخَلْق. يقول تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ [سُورَة «الأنعام» – من

الآية ٣٨]، ويقول أيضًا: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [سُورَة «الكهف» – الآية ٥٤]، ويقول في ذات المعنى في سُورَة «الإسراء»: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

ولكن، وقبل تناول بعض الجوانب المتصلة بذلك، والتي تطمئِنُ نفس كلِّ مسلم إلى أن القرآن الكريم، هو كتاب اللهِ المتين؛ فإننا ينبغي علينا الإشارة إلى أن قراءة الحدث الآني من خلال القرآن الكريم، هو أمرٌ ليس بالبساطة التي يقوم بها البعض، ويقع بالتالي بها الكثير من الأخطاء التي تصل إلى حد الترويج لخرافات، تأتي بأثر عكسي مدمِّر على جهود الدعوة، وتقديم كلام اللهِ تعالى إلى غير المسلمين لكي يتفكَّروا فيه.

وحمل لنا زمن انتشار كورونا المُسْتَجَد الكثير من هذه الأمور، مثلما رأينا فيما انتشر عن تفسير البعض لعدد من آيات سُورَة «المدَّثر»، في السياق الخرافي هذا، وغير المُنْبَني على علم صحيح بالمفاهيم القرآنية، وقضية تفسير الواقع من خلال نصوص كتاب الله تعالى، بشكلٍ أضر ولم ينفع.

فعندما نقول إننا نجد ما يجري من حولنا في القرآن الكريم، نقف بصورة أخرى مختلفة تمامًا في منهجيتها عن هذه المنهجية التي فيها الكثير من الاستخفاف بكتاب اللهِ العظيم، وبمسؤولية تفسيره وتقديمه للمسلمين وغير المسلمين، والكثير من عقلية الخرافة كذلك.

يقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [سُورَة الحَج – الآية ٧٣].

أليس هذا ما يحدث بالضبط في ظروف الوباء؟!.. الوباء الذي أصابنا به مخلوق من مخلوقات اللهِ تعالى، حتى أدنى من الذباب، واستلب الناس أعمالهم، وحياتهم الطبيعية، واستلب من الناس مدخراتهم، وقضى على أمنهم وأمانهم النفسي، ثم بعد ذلك يقفون أمامه عاجزين!!

إن مسألة شمول الرؤية القرآنية للأحداث والقضايا التي تُعرَض على البشرية، فرادى وجماعات، ليست بالسذاجة التي يظنها البعض، مثل ضرورة أن نجد إشارات مباشرة، وإلا اعتبرنا القرآن الكريم مناقضًا لنفسه حاشا لله، عندما نجد الآيات تؤكد على شمول الرؤية القرآنية، بينما لا نجد كل ما مرت به البشرية من عوائد وحوادث، أو أن نلجأ إلى معادلات الأرقام الجاهلة التي يقوم بها البعض لِلَيِّ النَّص القرآني لكي يخرجون بتفسيراته على ما يرغبون.

فعلى مستوى الحدث المباشِر؛ قال اللهُ تعالى صراحةً في القرآن الكريم؛ إنه لم يذكر كل شيء عن أي شيء.. يقولَ تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلًا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ ﴾ [سُورَة «النساء» – من الآية ١٦٤].

إن الله تعالى أحكم وأعظم من أن يلجأ إلى المنهجية التي يظنها البعض في القرآن الكريم فيما يخص الشمول الموضوعي والعموم الزمني، والتي تسببت في ضلال وإلحاد الكثيرين في الواقع، وإنما صاغ سبحانه النص القرآني بعظيم حكمته المطلقة، بحيث يتضمن الشمول والعموم الذي يضمن أن يكون متجدِّدًا، وصالحًا في كل زمان ومكان، حتى يشاء اللهُ تعالى فيرفعه من الأرض.

ومن بين ما نجده عن الكورونا في القرآن الكريم كذلك، عجز الإنسان وعلمه أمام هذا الكيان المتناهي الصِّغَر، بل والأمرُّ من ذلك، وشاءت حكمة اللهُ تعالى أن يكون

إذلالاً لغرور الإنسان، أن علم البشر القاصر قد بات يدرك تمامًا طبيعة هذا المخلوق الذي يواجهه، بينما يعجز تمامًا عن إيجاد علاجٍ أو لقاحٍ له.

لقد تلقى الإنسان وغروره صفعةً لا يمكن لأيٍّ كان، كان أن يتصورها، ففي عصر عبادة العلم والعقل من دون اللهِ تعالى؛ تصور الإنسان أنه قد أدرك سرَّ الحياة نفسها، وإذا به يموت ويُهدَّد بالمجاعة مع نقص إمدادات الغذاء العالمي بفعل غلق المصانع وحركة النقل، ويقف علم الإنسان وعقله عاجزَيْن أمام ذلك.

ألا نجد ذلك في القرآن الكريم؟!.. بلى؛ نجده، فيقول تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سُورَة «الإسراء» – من الآية ٨٥]، وهنا في هذه الآية دلالتان في شأن هذا الذي نقول.

الدلالة الأولى، أن كل علم الإنسان، إنما هو بقَدَرِ من اللهِ تعالى، يمرر منه ما يشاء وقتما يشاء وفق ترتيبه المرسوم منذ الأزل، لصيرورات الحياة الدنيا، وحياتنا على هذه الأرض. هذا نجده في جملة ﴿أُوتِيتُم﴾.

أما الدلالة الثانية، فهي نقص علم الإنسان، وهذا نجده واضحًا جليًّا في عبارة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

والقرآن الكريم كثيرًا ما وصف الإنسان بالجهل بالمعنى الموضوعي، المتعلق بنقص العلم، وليس الجهل الذي يتعلق بالضلال وفساد العقيدة فحسب.

كل ذلك، وكل ما نراه من حولنا، يؤكد حقيقة قرآنية مهمة، ظنَّ الإنسان بجهالته وجهله أنه قد تجاوزها منذ عصر الثورة الصناعية ثم ثورة المعلومات والإلكترونيات، وهي أنه ضعيف.. ضعيف للغاية، ولولا لطف اللهِ تعالى بنا؛ لهلكنا.. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [سُورَة «النساء» – من الآية ٢٨].

..*

قضايا وإشكاليات حول كورونا بين العلم والدين

كما في كل موقف مماثل نشهد فيها ظاهرة على قدر من العموم في الانتشار والتأثير، تصاعدت حدة الجدل حول وباء «كوفيد ١٩» الذي تسبب فيه فيروس جديد من عائلة فيروسات الأنفلونزا، عُرِف بفيروس كورونا المستجد، بين أصحاب الاقتراب الديني ونظرائهم من أصحاب الاقتراب العلمي لتناول الأمر.

وبطبيعة الحال، كما هي عادة النقاشات في مجتمعاتنا العربية؛ فقد تبادل الطرفان الاتهامات، ما بين الدروشة وتغييب العقل والعلم، وبين العلمنة المفرِطة.

وفي حقيقة الأمر؛ فإن المسألة ليست بهذا التعقيد، فالموقف الذي يتعلق بالوباء، إنما هو موقف مختلط ما بين سياق علمي وطبي، وبين سياق مجتمعي وإنساني، وفي هذه المناطق المختلطة؛ فإن الطبيعة المتعددة، هي أساس الأمور.

أي أن التناول الأرشد والأجدر للوباء وما يرتبط به من تأثيرات، إنما ينبغي أن ينطلق من الطبيعة المتعددة هذه للموقف، بين الطب وعلم النفس وعلم الاجتماع، وغير ذلك.

وهنا نقف أمام منطق غريب من الذين ينفون الاقتراب الديني من المسألة؛ حيث الكثير منهم يعترفون بهذه الطبيعة المتنوعة للقضية، ربما بكل جوانب الموقف، إلا الجانب الديني؛ فهم لا ينكرون أهمية علم النفس في تدراؤ أثر العزلة والتباعد

الاجتماعي وفقدان الأعمال وكذا، ضمن بوتقة النقاش الشامل الصحيح لموضوع كورونا، لكنهم يصابون بالكثير من الأرتكاريا والتحسس إذا ما جئنا بالجانب الديني، بالرغم من بداهة ذلك.

فعلى أبسط تقدير؛ فإن الجانب الديني مهم في النواحي النفسية هذه، وهذا ليس لدى المسلمين فحسب؛ حيث هو لدى شديد الأهمية في المعالجات النفسية والتلقِّي السوي من جانب المؤمنين من أتباع كل الديانات، سواء المنزَّلة أو الوضعية.

والدين في جوهره، وفي معناه الشامل، لا ينفصل عن أي شيء في حياتنا في واقع الأمر، سواء آمن الناس بذلك أم لم يؤمنوا.

فالدين هو القواعد التي ارتضاها اللهُ تعالى لنا لكي نحيا بها، ونظَّم بها علاقاتنا في دوائرها المختلفة، بدءًا بعلاقتنا به هو سبحانه، وحتى علاقتنا بأنفسنا وبالكون من حولنا، وتصوراتنا عن الدنيا والخَلْق.

والله تعالى هو الخالق، وبالتالي؛ فإن أية قواعد حاكمة، سواء في مجال الطبيعة ومفرداتها، أو في المجال الإنساني؛ هي خلقٌ من خلقه، وهو واضعها.

ووفق هذه النظرة للأمور؛ فإنه حتى قوانين الفيزياء في أبسط صورها، هي خلق من خلق الله، وبالتالي؛ فحتى العلم المادي، هو مجرد أداة لاكتشاف القوانين التي خلق اللهُ تعالى الأشياء عليها. اكتشاف الإنسان لسرعة الضوء وقوانين الحركة، هي فهم بشري بأدوات معينة للقوانين التي وضعها اللهُ تعالى في الضوء وفي الحركة، وهكذا.

وبالتالي؛ فإنه ليس من قبيل «الدروشة» أو الجهل إطلاقًا أن نتناول الوباء وتطوراته وآثاره من وجهة نظري دينية.

والقرآن الكريم فيه الكثير من التوضيحات حول تساؤلات الحائرين بشأن كورونا المستجد، كسياق طبي علمي، وكسياق ديني.

وبداية؛ فإننا عندما نقول «سياق ديني»؛ فإننا نعني بذلك معانٍ عديدة، مثل العقاب أو الابتلاء أو اختبار الثقة والتسليم والإذعان من العبد لربِّه تبارك وتعالى، ولا نقصد العقاب فحسب؛ حيث هذه النقطة من أكثر الأمور التي تدور حولها الخلافات.

فلو أن البعض تكلم عن أن الفيروس وما ترتب على انتشاره الوبائي، وآثار ذلك العميقة، يأتي في إطار آيات اللهِ أو ابتلائه أو عقابه؛ فإنه في بعض المواضع من القرآن الكريم؛ نجد الكثير من العلامات التي تؤكد أن هذا الفهم للأمور، سليم ولا مشكلة فيه، بحيث يمكن أن نقول بكل ثقة واطمئنان، أنَّ اللهَ تعالى لو أراد أن يعاقب البشر على ظهور الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس؛ بصاعقةٍ من السماء، أو أراد إن يريهم آياته في خلقه؛ لألبس ذلك كله ثوب العلم.

والقضية منطقية في الكيفية التي يقوم بها اللهُ تعالى على إدارة شؤون الكون وتوجيه الدنيا. فهو سبحانه لو أوضَحَ لنا بما لا يدع مجالاً للشك، آياته وقدراته وعقابه؛ فإين الاختبار في الدنيا للإنسان والمخلوقات المُكَلَّفة الأخرى في مسألة الإيمان والتسليم والإذعان. لو فعل اللهُ تعالى ذلك؛ لانتفت حكمته من خلق الدنيا؛ حيث سوف يؤمن الناس، وهو حاشاه العبث أو النقصان في التدبير والحكمة.

ومن بين الآيات التي تقول بذلك بوضوح، قوله تعالى في سُورَة «الأنعام»: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تتكلم عن إمهال الناس، وعن أن اللهَ تعالى شاء ألا تكون آياته في خلقه قاطعة بفكرة وجود رب وإله واحدٍ لهذا الكون، لا شريك له، لتحقيق سُنَنِه من خلق الدنيا، ولو فعل غير ذلك – كما قلنا – لانتفى الكثير من هذه السُّنَن التي يعجز عقلنا القاصر عن إدراك مثقال ذرَّةٍ منها.

ولا يتضاد ذلك مع إهلاكه سبحانه للأمم الأولين بذنوبهم، مثل قوم عادٍ وثمود، فهؤلاء حقَّت عليهم الآيات والهَلَكَة بعد أن تجاوز بهم المدى والموقف، التوبة والإيمان لو رأوا الآيات، فحقَّ عليهم حكم اللهِ تعالى.

وهي سُنَّة توقفت قبل بعثة الرسول الكريم، محمد «صلَّى اللهُ عليه وسلَّم» بفترة، إفساحًا للمجال أمام الدعوة لدينه الخاتم، الإسلام، للانسياح بين الناس، وتحقيقًا لسُّنَّة أنه إنما محمدٌ «عليه الصلاة والسلام»، بُعِثَ رحمةً للعالمين، ثم سوف تعود سُنَّة إهلاك الأمم إلى الأرض بعد أن يشاء اللهُ تعالى ويرفع الإيمان من أهل الأرض في آخر الزمان.

وفي سُورة «يُونُس»، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

فهكذا ببساطة. لو ابتلانا اللهُ تعالى بذنوبنا فورًا، وبصورة واضحة؛ لآمن الناس كلهم أجمعين، وقلنا إن حكمته سبحانه شاءت غير ذلك، ولكنه يفعل ذلك بصورة مختلفة، تنبِّه الناس، وتدفعهم إلى التفكير فيما يفعلون لعلهم يرشدون.

أما عن عدم تقدير البعض لسوء ما وصلت إليه الإنسانية بحيث تستحق ألف ألف كورونا كعقاب، وألف ألف وباء؛ لنرَ ما قاله اللهُ تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سُورَة «النَّحل» – الآية ٦١].

وكما قلنا في مواضع سابقة من الحديث؛ نحن لا نعلم عِظَم الأمانة الموكولة لنا، وبالتالي عِظَم التقصير في أداء حقِّها. يقول تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سُورَة «الاحزاب» – الآية ٧٢].

وبالمثل؛ نحن لا نعلم قيمة العبادة التي نضيعها، وبالتالي؛ لا نقدِّر عِظَم ذلك الخطأ، ولا وطأة الذنب الفلاني.

ألم يقُل الرسول الكريم «صلَّى اللهُ عليه وسلَّم»، للسيدة عائشة (رَضِيَ اللهُ عنها): «لقد قلتِ كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته» [أخرجه أبو داوود]، وذَلك لمجرَّد أن السيدة عائشة قد أشارت إشارة يُفهَم منها أنها تسخر من أن أم المؤمنين صفية بنت حُيَي (رضي اللهُ عنها)، قصيرة القامة.

وللعلم. فإن اللهَ تعالى يجازي الإنسان على ذنوبه في حق الناس، قبل أن يجازيه على ما أتاه الإنسان المذنب في حقِّ اللهِ تعالى؛ لأن اللهَ تعالى هو القوي العزيز، ولو اجتمعت الإنس والجن وسائر الخلق ما أَضرُّوا اللهَ تعالى في شيء، ولكن الإنسان؛ هو مخلوق ضعيف لا يرى سنتمترًا واحدًا أبعد من مجال إبصاره، ولو خلفه بمترٍ واحد!

من هذه الزاوية كيف نرى العالم الآن؟!.. سرقة حقوق، وعقوق، وقتل وتشريد واحتكارات (تقتل بدورها) واستغلال. بل إن العالم لا تزال فيه العبودية، سواء

الصريحة الواضحة، أو في صورة عقود الإذعان الرأسمالية، في الوقت الذي يطنطنون فيه أمام الكاميرات والميكروفونات، بأننا في عصر حقوق الإنسان!

ومن القراءات الأخرى ذات الاقتراب الديني لموضوع كورونا بعيدًا عن قضية العقاب أو الابتلاء، ما رأيناه من أثر طغيان الثقافة الاستهلاكية في أوقات الرفاه على مناعة الناس المالية والنفسية في أوقات أزمة طاغية مثل هذه.

هنا نقول ألم تكن من وصايا عمر بن الخطَّاب (رضيَ اللهُ عنه)، أنْ قال: «اخشَوْشِنُوا؛ فإنَّ النعمةَ لا تدوم».

هي عبارة وجيزة، لكنها تعكس حكمةً وفهمًا عميقَيْن للدنيا وتقلباتها، وواجبات الإنسان إزاء نفسه وحفظًا لكرامته. وصيةٌ لو التزم بها الناس؛ لوَقَوْا أنفسهم شرَّ ذُلِّ الحاجة، وقذارة هيمنة أصحاب رؤوس الأموال، وتفادوا مذلَّات أوقات الفقر والفاقة والأوبئة والحصار.

وفيها أن تتعلَّم الزهد في الدنيا، لأنها بدورها زائلة ومؤقتة، وغادرةٌ غير مأمونة، لكي نحفظ كرامتنا، وما أهان الناس وانحطَّ بقيمتهم كآدميين؛ إلا أنهم تحولوا إلى عبيدٍ للدنيا، ولشهواتها الزائلة.

رحم اللهُ عمرًا، وصدق اللهُ العظيم إذ قال عن الدنيا: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [سُورَة «الحديد» – الآية ٢٠].

.....

نعم. كورونا المستجد وباء، له جوانبه الطبية والعلمية في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ولكن من ناحيةٍ أخرى، بالتأكيد هو ابتلاء واختبار للبعض، وعقاب للبعض الآخر بما كسبته أيدينا ونوايانا، ولعلنا نستفيق ونرجع؛ لا يتعارض الأمران.. يقول تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [سُورَة «الْمُدَّثِّر» – من الآية ٣١].

..*

كورونا وما أرتنا إياه..
لماذا يجب أن نبني مع الخالق لا مع المخلوق؟!

في حقيقة الأمر؛ فإن هذا السؤال لا يتعلق بأمور عقدية – بالرغم من أن صُلْبَه من صميم أمور العقيدة – بقدر ما يتعلق بنَوَاحٍ تربوية وعملية في حياتنا، وبالتالي؛ فهو من أهم الأمور التي ينبغي على كل مسلم إدراكه ضمن قضية الحياة وفق التصوُّر الإسلامي، وكيف تكون.

كما أنه متصل في جانب من جوانبه بالظروف الراهنة التي تمر بها الإنسانية؛ حيث قادت أحوال وباء كورونا المستجد إلى العديد من التبعات في المجال الاجتماعي كما في المجال الاقتصادي، وحتى على المستوى النفسي في ظل ما أثبتته تأثيرات الحدث من أمور من أهمها أننا على أكبر قدر من الهشاشة.

بل إنه يمكننا القول إننا رأينا لمحة من بعض الأمور التي تكلَّم عنها القرآن الكريم عن مشهد يوم الحشر والحساب، وأهمها صورة مرعبة نفسيًّا لنا جميعًا، وهي فرار الإنسان من أخلائه وأحبابه، سواء لتأمين نفسه من العدوى، أو تفضيلاً لمصالحه الذاتية على مصالحهم.

وكأننا نرى رأي العين ما قالته الآيات الكريمات: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [سُورَة «عَبَسَ»].

والمشاهد المروِّعة التي رأيناها على شاشات الفضائيات ومواقع التواصل الاجتماعي في مجتمعات كانت تظن نفسها على أكبر قدر من المناعة الصحية والاجتماعية؛ تقود بدورها إلى ضرورة التدبُّر والتفكير في سياقات حياتنا. تدبُّر وتفكير لابد وأن يقودنا إلى إعادة النظر في كل شيء نحيا به، وفي نظرتنا ذاتها إلى الأمور.

فلقد رأينا مجتمعات تزعم أنها وصلت إلى أكبر مراتب الإنسانية واحترام حقوق الإنسان؛ رأينا أفراد هذه المجتمعات يتصارعون على علبة من الحليب أو الجُبن أو المطهِّر لا تزال متبقية الأرفف الخاوية للمتاجر الكبرى!

بل إن ذلك شمل حتى أشياء فيها الحياة أو الموت، مثل المعدات الطبية المهمة، كالملابس الواقية وأجهزة التنفس الاصطناعي، وبالتالي؛ فإن الصراع عليها، وسعي بعض أصحاب رؤوس الأموال إلى الاستحواذ عليها واحتكارها لأجل التربُّح، أبرز أسوأ جوانب الإنسانية وحشية، والتي هي من دون أدنى تردد أو شك، هي مخاض الرأسمالية اللعينة، التي تتضمن الكثير من الجوانب النفسية والاجتماعية التي جعلت الإنسانية أدى إلى مرتبة البهيمية!

وهذا ليس قولي، وإنما هناك فلاسفة ومفكرون لديهم يعترفون بذلك، ويُصدَمون في أنفسهم ومجتمعاتهم في كل مرَّة يحدث فيها مثل هذه الأحداث الكاشفة!

وهذه الوحشية ليست فقط على مستوى الشركات وأصحاب الصيدليات والمتاجر، وإنما حتى على المستوى الفردي للبعض؛ حيث إن هناك مَن فضَّل تأمين نفسه بعبوة كاملة من الكمامات، وترك غيره، وفيهم الأطفال والمسنون والحوامل، للموت حقيقةً بالمعنى الحرفي للكلمة من دون كمامة واحدة!

هكذا فجأة؛ عادت البشرية في سلوكها وطبائعها النفسية إلى عصور الغاب، وتبيَّن لنا أن الحضارة لم تصبِغ علينا سوى قشرة بسيطة سرعان ما تتساقط مثلما يتساقط الدِّهان الهش قليل الجودة من على جدار هشٍّ بدوره أغرقته المياه!

ومن فُحش وقساوة الموضوع، وجديته؛ وصل الأمر إلى أن حكوماتهم خرجت إلى العلن لكي تطالبهم بالهدوء وبمراعاة بعضهم البعض، ولا كأنهم في أحد بلدان العالم الثالث التي تسببوا هم في تأخرها وتخلفها، ثم اتضح أنها أكثر حضارة منهم بمراحل، فلم نسمع عن بلد عربي أو من بلدان الجنوب الفقيرة، قد حدث فيها ذلك.

رأينا الوظائف تنهار، والمشروعات تفشل، والأحلام تتبدد، وبدا وكأنَّ الناس قد صاروا أعداء لبعضهم البعض.

بطبيعة الحال؛ لم تصل الأمور إلى أسوأ صورها؛ حيث لا تزال الحكومات والروابط الاجتماعية حاكمة للكثير من صور الفوضى، ولكن ما بدا أمامنا لابد وأن يدفعنا إلى التفكير في نقطة مهمة يطرحها دائماً حتى مدربي التنمية البشرية والعاملين في حقول التطوير الإداري، وهي مدى صحة الكيفية التي نتحرَّك بها في حياتنا، ومدى كفاءة رهاناتنا فيها!

إن جائحة كورونا المستجد ليست بدعًا مما تثبته الأحداث اليومية لنا في حياتنا، ولكننا نتغافل عنها، ولكن ميزة الوباء أنه مثَّل صيحة قوية عميقة التأثير، تمامًا مثل الفارق بين الضوء العادي الذي يمر بنا ونمر به مرور الكرام، وشعاع الليزر والأضواء المركَّزة التي تخترق عيوننا وأجسادنا اختراقاً.

إن كورونا وكل «كورونات» حياتنا تقود إلى مجموعة من الحقائق التي ينبغي على الإنسان العاقل الوقوف أمامها، وأهمها هشاشتنا وهشاشة بنياننا، وأن ما نبنيه مع

الناس، ومع الدنيا، إنما هو زائل، وضعيف، وغير مضمون، وأن ما نبنيه مع اللهِ تعالى فقط هو المضمون، والحقيقي، والدائم.

فحتى لو خلُصَت النوايا والعواطف فيما بيننا، وشملتنا مشاعر التضامن كما نرى في كثير من مجتمعاتنا العربية والمسلمة التي لا تزال شرائح فيها تحتفظ بفطرتها الصحيحة، وعلى قدر التديُّن المطلوب؛ تبقى نقطة هشاشة بنياننا وترتيباتنا.

وهو درس من المفروض أننا استوعبناه من زلزال ثورات ما يُعرَف بالربيع العربي، عندما رأينا بنيان الأباطرة وسادة الاستبداد والفساد والقسوة، والذين ظنوا أنهم قد ملكوا الدنيا وما فيها، ووصلت سطوتهم إلى وأطراف الأرض؛ رأينا كيف أنْ بُنيانهم قد انهار في لحظات مثل نِمْرٍ من ورق أو قصور الرمال على شاطئ البحر، ونالوا المهانة والعقاب من نفس الكأس التي كانوا يسقونها لشعوبهم، وصاروا مجرد خبرًا لـ«الترِند» أو لاستكمال نشرات الأخبار، ثم ذابوا تحت التراب!

فإذا كانت هذه النوعية من البُنيان قد سقطت، وبسهولة، وكان من أهم علاماتها الخذلان؛ حيث تخلى الحلفاء عن حلفائهم، ومن قبل حتى؛ رأينا شاه إيران الذي كان يملك ملك كسرى، قد ظلَّت طائرته في الهواء غير قادرة على الرسو في أي بلدٍ كان يبدي له المودة وقتما كانت له السطوة والصولجان!

فالبشر غير مضمونين، وعوارضهم كثيرة، وقد يكونوا غير منطقيين في الأصل، وعلى أكبر قدر من الضعف كما جاء في القرآن الكريم.

بينما البناء مع اللهِ تعالى؛ إنما ضمانته أنه يتم مع الخالق القادر، ومالك المُلك، والذي لا يخلِفَ وعده، ولديه خزائن السماوات والأرض، ولا يخذلك أو يظلمك، وقيوم على

شؤون عباده وخلقه، والصبور عليهم، الذي يغفر لهم ذلَّاتهم، ولا يحاسبهم بذنوبهم وإلا ما أبقى عليها من دابة.

وكل هذه المعاني في القرآن الكريم، ونصوصها واضحة، ونجدها مُطَبَّقة في الهدي النبوي، حديثًا وسيرةً وتربية.

كما أنه يتم في اتجاه الحياة الحقيقية، الحياة الآخرة؛ حيث الدنيا لا تساوي عند اللهِ جناح بعوضة، وهي متاع الغرور، بينما الآخرة لهي الحيوان. وكل هذا مذكور، وبوضوح كذلك في معين عقيدتنا الأساسي، وهو القرآن الكريم، وأصَّلته التربية النبوية.

ولكننا نجد من البعض عجبًا حتى في أبسط قواعد المنطق العقلي؛ حيث يبني بنيانه على شفا جرفٍ هار، ومع المخلوق الضعيف، ويضع لذلك كل الحسابات والأولويات، بينما يتجاهل مَن هو الذي بيده مصائرنا حقيقةً، والقادر حقيقةً، وهو الخالق عز وجل.

......

إن فزع المسلم قد يكون مبرَّرًا بطبائع الإنسان التي جَبَلَه اللهُ تعالى عليها، ولكنه لا ينبغي أن يحول بينه وبين أن تكون لديه كل هذه المُدْرَكَات، والتي – ومن المدهش أن بين ظهرانينا مَن يتجاوز هذه الحقيقة – فيها سعادته الحقة، واطمئنان نفسه، وأمانه النفسي.

لكنها – كما قلنا – مهمة تربوية، دينية ونفسية وسلوكية، وهي ما تفتقده مجتمعاتنا بشكل عام، وإن كان ينبغي الإشارة هنا إلى أنها من ضمن المناهج والأساليب التربوية التي نجدها في الكنائس المشرقية التي لم تتخل عن فكرة أن الدين هو تصور شامل للحياة، وهو عقيدة وحياة، ودنيا وآخرة.

والمسلمون أولى بأن تكون لديهم هذه الرؤية في ظل ما تقدمه لنا الشريعة الإسلامية من شمول في مختلف الأمور والاتجاهات؛ العقيدة والعبادات والمعاملات، وفيما يخص تصور الإنسان لنفسه وللآخرين، وللكون من حوله، وصولاً إلى خالقه.

وبالتالي؛ فإنها مهمة دُعاة وتربويين بامتياز، وينبغي في هذا الصدد استعادة المنهج النبوي في التربية، والذي قاد إلى تأسيس جيل كامل تعامل مع الدنيا والآخرة ومفاهيمهما بهذا المنطق، فوجدنا مَن يترك ماله وتجارته وحياته للحاق بالرسول الكريم «صلَّى اللهُ عليه وسلَّم» في هجرته، وفي عملية تأسيس دولة الإسلام الأولى، ومجتمع الإسلام الأول.

هذا حدث ببساطة لأنهم فهموا أن التجارة مع اللهِ تعالى أبقى وأكثر ضمانة، وفائدة حتى بمنطق المصلحة المادية، من التجارة مع البشر.

لكننا نجد في عصرنا الحالي مَن يقرأ كل ذلك في القرآن الكريم، ولا يفهمه وبالتالي لا يعمل به، وبالتالي – أيضًا – يقف فَزِعًا خائفًا، وضعيفًا مشلولاً، قليل الحيلة، عند كل جائحة تصيبه!

..*

كيف تعامل دعاتنا ومؤسساتنا الدينية مع أزمة كورونا المُستَجَد؟!

في الواقع؛ فإن هذا التساؤل في ظل ظروف وباء كورونا المستجد لا يتعلق بشائع التصوُّر بشأن مسؤولية المؤسسات الدينية والدعاة والعلماء عن الأحكام الفقهية المتعلقة بكيفية التعامل مع الأمور المتعلقة بالصلاة والحَج والعمرة وسائر العبادات الأخرى في أوقات الأوبئة والجائحات، أو فيما يتعلق بأحكام الحركة من وإلى المناطق الموبوءة؛ حيث الأمر أعمق وأكثر شمولاً من ذلك.

ويأتي العمق والشمول من عمق وشمول الشريعة الإسلامية، وكون الإسلام دينًا شاملاً يغطِّي سائر مناحي حياة المسلم، ومن صميم واجبات المسلم أن يحيا حياته وفق التصور الإسلامي، أو العمل وفق مبدأ سددوا وقاربوا على أقل تقدير.

وبالتالي؛ فإنه في ظروف الوباء؛ فإن هناك أدوارًا أكبر على الأطر العاملة في حقول العمل الإسلامي المختلفة، سواء شخوص أو مؤسسات، وبالذات في مجالات الدعوة والأخلاق، والتربية والسلوكيات؛ أكبر من مجرَّد الحديث عن إصدار فتوىً أو ما شابه.

وبدايةً عندما نتساءل عن الكيفية التي تعاملت بها هذه الأطر؛ فإننا نقف أمام بعض الظواهر الشديدة السوء، والتي انتقصت من دورهم، ومن صورتهم سواء أمام المسلمين أو أمام غير المسلمين.

الظاهرة الأولى، تسييس الموقف والفتوى. والمؤسف أن هذا حدث من بعض الأعلام المعروفين والذين لهم جمهور كبير ومنصات حركية وإعلامية ذات صيت وتأثير يخرجون على الجمهور العام منها.

وبدا ذلك أكثر ما بدا من بعض الأوساط الدعوية المحسوبة على بعض الحركات الإسلامية، عندما بدأت بعض الدول العربية في إجراءات غلق المساجد وتعطيل الجُمَع فيها، منعًا لانتشار عدوى الوباء، وبالخصوص في المملكة العربية السعودية، عندما تم أولاً غلق الحرَمَيْن الشريفَيْن ليوم واحد للتعقيم، ثم الغلق الكامل بعد ذلك وصولاً إلى إلغاء بعض مواسم العمرة.

هنا تدخَّل عامل السياسة الضيقة عندما هاجم بعض العلماء والمنصات الدعوية المعارضة لبعض الحكومات العربية، وللحكومتَيْن الإماراتية والسعودية على وجه الخصوص، هذه القرارات، وتم تصويرها على أنها من نادر الحدث، وأنها حربٌ على الدين، وأنها نذير شؤم وما إلى ذلك، ثم عندما تفشَّى الوباء في كل الدول، وأخذت حكومات بلدان أخرى مثل قطر وتركيا؛ تم التعامل مع الموقف بصورة مختلفة، وتم العودة إلى الاعتبارات الموضوعية في الحكم على المواقف والقرارات الرسمية.

في الحقيقة، وبعيدًا عن الحكم الشرعي الصحيح لهذه القرارات؛ حيث لست بأعلم النا بها، فإن التوظيف الإعلامي السياسي للموقف؛ أضرَّ كثيرًا بصورة الدعوة ورموزها في وقت من المفترض بعد أزمات وخطايا السنوات الماضية، أننا نبحث عن تحسين الصورة الذهنية، ونصحِّح الموقف؛ لا أن تبدو المؤسسات والدعاة أدوات سياسية ضيقة.

الظاهرة الثانية، كانت في الكيفية التي تم بها إدارة الخلاف الفقهي في صدد هذه القرارات. البعض رآها سليمة من الناحية الشرعية، والبعض رآها خاطئة، وكلاهما استدل ببعض الأدلة الشرعية، وهذه نقطة سلبية في حد ذاتها؛ حيث كان من المفترض أن يجتمع جمهور العلماء والمؤسسات، والخروج بموقِّف موحَّد.

ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد؛ حيث إن إدارة الخلافات في الأحكام الفقهية وصل إلى مستوى لا أخلاقي في بعض المواضع، شمل التشكيك والتخوين، بل وتبادل السُّبَاب والاتهامات بالجهل في بعض الأحيان.

وكان ذلك لأسباب سياسية أو مذهبية، وبقطع النظر عن الانتماءات الحركية أو أسماء هؤلاء العلماء أو هوية هذه المؤسسات؛ فإن تأثير ذلك ليس بحاجة إلى الذِّكْر؛ حيث إنه ضاعف من حجم مأزق الدعوة والدعاة والحركة الإسلامية بالكامل عند أجيال باتت الآن في حكم المنفلتة ليس عن العمل الإسلامي، وإنما عن التديُّن المطلوب في حياة الناس جميعًا.

الظاهرة الثالثة، ضعف التعامل مع الجوانب الأخرى المتعلقة بالوباء وآثاره؛ حيث أخذت القضايا المشار إليها، وقف صلاة الجماعة في المساجد، وتعطيل الجُمَع، وغلق الحرَمَيْن الشريفَيْن وتعطيل العمرة – والآن السلطات السعودية بدأت تتحدث عن احتمال لتعطيل موسم الحج هذا العام لو استمر الوباء في التفشِّي – نقول إن هذه القضايا أخذتْ الحيِّزَ الأكبر في الاهتمام، وبصورة المناكفات السابق الإشارة إليها.

بينما لم نجد إلا عددًا قليلاً من الدعاة والمفكرين الإسلاميين قد اهتموا بنواحٍ أخرى أكثر أهمية، تمس العقيدة ذاتها، مثل كيفية التعامل مع القضاء والقدر، وكيفيَّة تقييم الموقف من زاوية أمر المسلم الذي كله خير، وتوصيف الموقف بدقة بين كونه ابتلاءً

للاختبار، أو للعقاب على تقصيرنا وذنوبنا وخطايانا، وطمأنة جمهور المسلمين الخائف من أن يكون ما يجري هو غضبٌ من اللهِ تعالى.

ويزيد من أهمية هذا الجانب، وبالتالي أهمية كان أن يكون أولوية كبرى لدى الدعاة والعلماء، أن جيلاً جديدًا من المسلمين نشأ فعلاً في ظل ظروف تغيب فيها الرؤية التي كانت تقدمها محاضن الحركة الإسلامية، بل ونشأ على أن الحركات الإسلامية عدوة إلى أن يثبت العكس.

ومن ذلك أن دعاة مخضرمين يعملون في حقل التنمية البشرية منذ عقود طويلة، لم يجتهدوا لتقديم أية حلول أو حتى نصائح لكيفية التعامل مع مشكلات ذات طابع فني، مثل إدارة الوقت في العزل الإجباري، والتفاعل النفسي والعاطفي مع الموقف، وإدارة علاقاتك مع الأسرة والآخرين في ظل ظروف التباعُد الاجتماعي، أو ضاغطة على النفس، وبالتالي لها أثرٌ سلوكي على المحيطين بالإنسان في عزله من أفراد أسرته القريبة؛ الزوجة والأبناء وكذا، في جانب الضائقة المعيشية.

كذلك لم نرى الكثير من المبادرات أو حتى المحاضرات في كيفية التعامل مع ضائقة الرزق التي ضربت العالم بالكامل، ولاسيما فئة الشباب والفئات الأضعف والأقل تمكينًا، وتوقف الكثير من فرص العمل.

وهنا تنبغي الإشادة بدور المدونين ومنصاتهم على وسائل التواصل الاجتماعي؛ حيث قدَّم هؤلاء – وكثيرون منهم من عوام الناس و»الإنفلونسر» غير المنتمين إلى الحركة الإسلامية، وليسوا حتى من المتدينين – قدَّموا الكثير من الأفكار الفعَّالة في كثير من هذه النواحي، وبلغةٍ سهلة ولطيفة لاقت تجاوبًا من الناس، وتشارك الجميع الخبرات بصورة فعلاً استثنائية.

الظاهرة الرابعة، أننا لم نجد الكثير من التجاوب مع الخرافات المطروحة، سواء في الأمور الفقهية أو العلمية المتصلة بالجائحة الراهنة للوباء، ولعل أهم هذه الخرافات التي كان ينبغي الرد عليها، هو ما يرتبط بالدين؛ حيث وجدنا بعض الأمور التي تم ترديدها في البداية عن أن العالم الإسلامي محفوظ بسبب أنه إسلامي، ثم تفشَّى الوباء في أرض الحرمَيْن نفسها!

كذلك لم يخرج أحدٌ بتوضيحات فيما يتعلق بموقف الإسلام من الأوبئة، وكيفية التعامل مع ظروفها الاجتماعية، وتُرِكَ المجال واسعًا لأمور ما أنزل الله تعالى بها من سلطان تكلمت عن الهدي النبوي في بعض الأمور الطبية بشكل خاطئ، مما أدى أصلاً إلى تشكيك البعض في العقيدة المبنية على «ذلك». «ذلك» الذي لا علاقة له بالإسلام، ولكن صورة الإسلام والدعوة تحملا مسؤولية جُهَّال القوم، في مقابل غياب العلماء الحقيقيين عن الصورة.

......

......

وفي الأخير؛ فإن الحديث السابق ليس من قبيل الادعاء، أو حتى جلد الذات، وإنما مقصودُه الأساسي هو توضيح نقاط الضعف القائمة في خطابنا العلمي والدعوي، وبالتالي في حراك المؤسسات والدعاة والعلماء، بحيث يتم التصويب. التصويب من خلال السعي إلى التواصل للوصول إلى إجماع في الآراء، أو اتفاق جمهور العلماء على الأقل على الأحكام الفقهية للحدث وتبعاته، والرد على المرجفين.

كذلك ينبغي تصحيح الخرافات المتداولة، وتقديم النصائح المهمة اللازمة في المجالات الاجتماعية والاقتصادية المختلفة ذات الصلة، والأهم من ذلك؛ تقديم الإسناد النفسي للناس، والابتعاد عن الصورة السوداوية للموقف.

ولو وصل بنا الحال إلى أن نقول للناس إنه حتى لو متنا؛ فإننا في سبيلنا إلى رحمة اللهِ تعالى وجواره الكريم، والذي هو أرحمُ وألطفُ بنا من أنفسنا ومن أمهاتنا وأبنائنا، وأننا حتى لو متنا بالوباء؛ فإننا سوف ننتقل إلى الحياة الحقيقية في الآخرة، حاملين أثر معاناتنا، وثمرة صبرنا وإيماننا بالله سبحانه وتعالى، وقبولنا لقضائه وقدره.

..*

لم يكُن من عند أنفسكم.. عن عبادة الذات والأسباب!

لا يزال وباء «كوفيد- ١٩» هو المسيطر على الحدث العالمي. فمهما كان الحدث في أي مكان؛ فإنه ليس بعالمية الأثر والانتشار الذي حققه الوباء.

نرى ما يجري في ليبيا، وفي سوريا، وفي الولايات المتحدة، وفي أفغانستان، وفي مناطق أخرى كثيرة من العالم، إلا أنه تبقى هذه الأحداث – حتى ما يجري في القطب الأعظم لعالم اليوم، أمريكا – مجرد أحداث محلية أو إقليمية، بينما فيروس «كورونا المُسْتَجَد» يصل العالم من أقصاه إلى أقصاه.

ولقد طالت فترة انتشار الوباء، مع غياب الرؤية الواضحة لأي جدول زمني للتعامل معه على مستوى العلاج أو اللقاح، أو حتى الوصول إلى مصل مؤقت لوقف انتشاره.

وبالتالي، وفي ظل تضاعيف الوباء، طالت فترة الحجر الصحي والعزل المنزلي الطوعي أو غير الطوعي في واقع الأمر؛ حيث لا أحد يحب المكوث في المنزل طيلة الوقت، وفي ظل التأثيرات الكبيرة للوباء على الحالة الاقتصادية والمعيشية للدول والمجتمعات والأفراد؛ فإننا نجد نبرة البؤس قد زادت، ونبرة اليأس قد تعالت.

وبالرغم من استقرارنا على قاعدة ضعف النفس البشرية، إلا أن البحث خلف هذه الحالة يكشف لنا الكثير من الخلل العميق الحاصل في الجوانب العقدية والإيمانية عند الكثير من المسلمين.

وهذه ليست مبالغة عندما توصيف ذلك السلوك من الناس بهذه الصورة؛ حيث هناك أدلة على ذلك من القرآن الكريم، وتفسير هذه الحالة من السهولة بمكان؛ حيث نحن نقف أمام أجيال نشأت وتربَّت وعاشت من دون تربية دينية صحيحة، سواء في المدرسة أو في البيوت والأسر إلا قليلاً.

وفي حقيقة الأمر؛ فإننا نجد الكثير من العجب مما نراه أمامنا من بعض الناس؛ حيث الأمر أقرب إلى عبادة الأسباب، وإعطاء الإنسان ما ليس له من فضل فيما كان عليه من أحوال قبل الوباء، وتغافل كامل عن فضل اللهِ تعالى علينا، والذي لولاه لكُنَّا هباءً منثورًا.

فهل ظنَّ الناس أن ما كانوا عليه من نِعَم واستقرار عَيْش قبل الكورونا؛ هو من عند أنفسهم لكي يفزعوا عند حدوث البلاء باًعتبار غياب الأًسباب؟!

كيف نقول – إذًا – إننا نقرأ القرآن الكريم؟!.. يقول تعالى: ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٥٤** ﴾ [سُورَة «النَّحل»].

لو كان الناس يظنون أنه كان من عند أنفسهم؛ فقد قالوا مثلما قال قارون: ﴿**قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ**﴾ [سُورَة «القصص» – من الآية ٧٨]، فماذا كانت النتيجة؟!.. يقول تعالى: ﴿ **فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ** ﴾.

وفي القرآن الكريم، ما يفيد أننا لو كررنا ما يقول القوم الضالون الكافرون بأنعم اللهِ تعالى وآياته؛ فإننا نكون منهم ومثلهم.. يقول اللهُ تعالى: ﴿ **وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي**

ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [سُورَة «النساء» – الآية ١٤٠].

ويقول سبحانه في سُورَة «الزُّمَر»: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ويقول كذلك في سُورَة «النساء»: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

إذًا، فإننا إذًا عندما نظن أنَّ ما كُنَّا عليه، كان من صنيعة أنفسنا، وأنه ما كان إلا بما أخذنا به من أسباب، ندخل في باب الكفرِ باللهِ – والعياذ بالله – من دون أن نشعُرَ.

الشكوى والضجر والتأفُّف كذلك؛ هو كلها أمورٌ منكرةٌ، لأنه يعني أنك وصلت إلى مستوى من عدم الثقة باللهِ تعالى، عافانا اللهُ جميعًا.. فهل نحن حقًّا من هؤلاء: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ [سُورَة «الحَج» – الآية ١١]؟!

في المقابل جعل اللهُ تعالى الدعاء والاستغفار طريق المسلم ووسيلته في مثل هذه الأحوال، وفي ذلك رحمةٌ منه سبحانه وتعالى بأنفسنا. هو أرحمُ بنا منَّا، فلو أننا أوقفنا الأمور عند الأسباب، وعند قضية أننا أصحاب الفضل فيما كُنَّا فيه؛ فهذا يعني أننا نقف أمام كارثة حقيقية، سوف يكون دمارنا في نهايتها، لأنه لا يد لنا في التحكُّم فيها، ولا أفق أمامنا لانقشاعها.

بينما لو أننا آمنَّا بأنَّ اللهَ تعالى هو المتصرِّف القيُّوم على أمور عباده وخلقه، وأنه هو صاحب الفضل العظيم علينا وقت أن كُنَّا في بحبوحة من العيش، وفي استقرار ودَعَةٍ، وأنه هو ذاته الذي ابتلانا لاختبارنا أو لعقابنا، أو أيًّا كان؛ فإن هذا وحده هو الكفيل بأن يدخِلَ على قلوبنا وأرواحنا السَّكِينة، لأننا سوف نكون مطمئنين إلى أنه كما ابتلانا؛ فهو القادر على رفع الابتلاء، وأنه كما أنعم علينا سلفًا؛ فإنه مالك المُلك، وخزائنه لا تنفد، فيكونَ أن ندعوه برحمته أنْ يعيد إلينا ما راح من نِعَمِه.

إننا يجب أن نحذر أن نكون ممَّن قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [سُورَة «الفجر»].

كذلك إننا في مرحلة ما بعد كورونا، بعد أن ؛ ينبغي أنْ نحذر من أنْ نكون ممَّن قال فيهم اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سُورَة «يُونُس» – الآية ١٢].

......

وفي الأخير؛ فإنه أيها الإنسان، لا تظن أن ما كان بكَ من نعمةٍ، كان من نفسك، وإذا ما كنت تظنُّ كذلك؛ فهذا يعني أنك تستحق أن يكون كورونا المستجد – ضمن صوره واحتمالاته المختلفة – إنما هو عقابٌ لك من اللهِ تعالى، وما هذا بقولي، وإنما هو قول الحكيم العليم!

وبعيدًا عن ذلك؛ فإن هذا كله يطمئنَّا إلى أننا على صواب إذ نؤمن باللهِ تعالى، ونسلِّم لنا أمره؛ حيث إن القرآن الكريم – كما رأينا – أوضح لنا كل ما نمرُّ به، وصنَّف لنا

قلوب البشر، وما في ضمائرهم، وجعل الأمور أمامنا واضحةً جليَّةً بما لا يمكن أن نجده في أي كتابٍ آخر مهما بلغت مهارة صاحبه وعلمه، وبما يدل أن القرآن الكريم هو من لدُن حكيمٍ عليم، خالق الناس والكون، وبالتالي؛ هو الأعلم بهم.

..*

هل نخافُ مِن قَدَرِ اللّه؟!

يُعتبر الإيمان بالقضاء والقَدَر، خيرِه وشرِّه، مِن أركان الإيمان السِّتَّة التي حددها علماء أصول الدين، والتي لا تستقيم عقيدة الإنسان وتكتمل إلا بها، بعد الإيمان باللهِ تعالى، وبجانب الإيمان بالملائكة، وبالكتبِ، وبالأنبياء والرُّسُل، والبعث واليوم الآخر.

ومثل كل ركن من هذه الأركان؛ تتصل قضية الإيمان بالقضاء والقَدَر بعدد من الأمور المركزية في العقيدة، أهمها نقطة مفصلية متعلقة بالإذعان؛ حيث إنه من صميم عقيدة المسلم الإذعان والتسليم، وهي حتى من بين الأمور التي سُمِّيَ دين اللهِ تعالى بهذا الاسم لأجلها.

ولقد ورد هذا المعنى في أكثر من موضع من القرآن الكريم، منها موضعان ربط بينهما رب العزة سبحانه بين التسليم والإذعان كَصُلْبٍ أساسي للدين، مسمًّىً ومعنىً، ومن ذلك التسليم بالقضاء والقَدَر، وبين مرتبة الإحسان، وهي الأعلى بين مراتب الإيمان وفق علماء أصول الدين، ونقطة تمام عقيدة المسلم.

فيقول تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سُورَة «البقرة» – الآية ١١٢]، ويقول عزَّ مَن قائل أيضًا: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [سُورَة «النساء» – الآية ١٢٥].

ويقود ذلك إلى نقطة أخرى مهمة في عقيدة المسلم، وهي ثقته المطلقة في رب العزة سبحانه وتعالى، في مختلف أوجه ومجالات الثقة، سواء في طلاقة القدرة، أو في حكمته البالغة سبحانه.

فأنت عندما ترضى بقضاء اللهِ تعالى وقَدَرِه، حتى لو بدا لك أنه يتضارب مع مصالحك – كما تراها – أو أنه حقق لك ضررًا؛ فأنت هنا تبرز ثقتك المطلقة في حكمة اللهِ تعالى، وتؤمن أنك مُلْكٌ له، ويفعل بك ما يشاء، حتى ولو أراد إهلاكك.

وتتصل بذلك أمورٌ أخرى مهمة، من صميم التوحيد ومعرفة الخالق الواحد الأحد، الفردُ الصَّمَد، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يكن له كُفُوًا أحد، مثل توحيد الصفات والأسماء؛ حيث ذلك يقود – مثلاً – إلى أن نؤمن بأنه الخالق الواحد كما قلنا، وبالتالي، هو المتصرِّف في، والقيُّوم على، شؤون العباد والخلْق كلِّه.

وهذا ليس مثالية زائدة أن نقول إننا يجب أن نؤمن بها، أو مستوىً خياليٍّ من الإيمان لا يمكن الوصول إليه؛ حيث لدينا الكثير من المواقف التي تقول بأن ذلك ممكن، بل ومن السهل الوصول إلى هذه المرتبة، ورواها لنا القرآن الكريم والسيرة النبوية، سواء من جانب الأنبياء والرُّسُلِ وآلِهم، أو من جانب الرسول الكريم «صلَّى اللهُ عليه وسلَّم»، وصحابته رضوان اللهِ تعالى عليهم أجمعين.

والأصل والأساس الذي يقود إلى ذلك هو التربية الصحيحة.

فالتربية النبوية قادت سيدنا عليٍّ بن أبي طالب (رضي اللهُ عنه)، إلى أنْ ينام في فِرَاش الرسول «صلَّى اللهُ عليه وسلَّم»، تحت طائلة سيوف صناديد كُفَّار ومُشْرِكي مكة.

كذلك التربية التي تلقاها نبيُّ اللهِ إسماعيل، على يد أبيه، أبي الأنبياء، الخليل إبراهيم «صلَّى اللهُ عليه وسلَّم»، وأمه السيدة هاجر، صلَّى اللهُ وسلَّم عليهم وعلى نبينا أجمعين،

قادته إلى أن يأتي بردِّ فعلٍ بشكل بدا شديد العفوية والبساطة في أمرٍ جلل، وهو حياته ذاتها.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾[سُورة «الصَّافَّات»].

ومن المهم هنا الإشارة إلى نقطة أن هذا المستوى من الإيمان الذي قاد إلى التسليم والإذعان مرتبط بمرتبة الإحسان كما ذكرنا في موضع سابق من الحديث.

ومن قبل؛ أخذتْ أُمُّه السيدة هاجر «صلَّى اللهُ عليها وسلَّم»، نفس الموقف؛ عندما تركها سيدنا إبراهيم «عليه الصلاة والسلام» في بلقع قفر. كان كل ما فعلته وفق ما جاء في الحديث، أن سألته إذا ما كان ذلك هو أمرٌ مِنَ اللهِ تعالى، ولما أجابها زوجها بالإيجاب، استسلمت، ثقة منها بأنه تبارك وتعالى «لن يُضيِّعَنا»، وكان أن تحول المكان بالفعل بعد ذلك إلى أهم مناطق شبه جزيرة العرب، وأكثرها سُقيا وخيرًا.

وبالتالي؛ فإننا عندما عن كيفية تلقِّينا قَدَرِ الله تعالى؛ فإن هذا يتوقف على مدى إيماننا بكل ما سبق من أمور، وبالتالي؛ فإن هذا التلقِّي، هو في حد ذاته مقياسٌ ومعيارٌ لمدى إيماننا.

ولكن المشكلة الحقيقية التي تعتور وصول هذه المفاهيم أنْ تُوقِر في أنفسنا، عندما تقع البلايا العظيمة، والمصائب الكبيرة، والتي تمس صُلْب مصالحنا الحيوية.

فتظهر هنا أهمية التربية كما قلنا، وأهمية أن نمتلك أدوات النفس المطمئنة، والتي عمادها الأساسي هو الثقة في اللهِ تعالى وفي حكمته، وفي أننا في الأول وفي الأخير؛ فإننا نحيا في هذه الدنيا حياةً مؤقتة، وبالتالي؛ فإن معاناتنا وأحزاننا، وحتى مسرَّاتنا، هي بدورها مؤقتة.

وبالتالي؛ فإن الأهم هو أن نفكِّر في كيفية إعدادنا للحياة الآخرة، التي هي الحياة الحقيقية كما قال القرآن الكريم في الكثير من المواضع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[سُورَة «العنكبوت» – الآية ٦٤].

وهنا نجد التكامل الذي يؤكد سلامة عقيدتنا؛ من أنها كلها من عند ذات المصدر، اللهِ تعالى وحده؛ حيث إن ذلك لن يتحقق إلا بالإيمان بركنٍ آخر من أركان الإيمان، وهو ركن البعث واليوم الآخر.

والقرآن الكريم، والتاريخ يقولا لنا الكثير من العِبَرِ والدروس في هذا الصدد؛ كم مرَّ الناس بمعاناة، وكم عانى المؤمنون، وكيف صبروا، وكيف تعاملوا مع البلايا والمواقف، وتقبَّلوا قَدَرَ اللهُ تعالى مهما كان، ومهما ترتب عليه من ألمٍ نفسي وبدني.

فها هو موسى يخرج خائفًا يترقَّب من القوم، وها هم مؤمنو الأخدود؛ تحمَّلوا أشد العذاب، وما رجعوا عن إيمانهم، ولم يتساءلوا أصلاً: أين الله الذي آمنَّا به لكي يخرجنا من هذا العذاب. مطلقًا؛ حيث وصلوا إلى درجة الإيمان الكامل الذي يتضمَّن بدوره الفهم الكامل.

وعجبًا لأمر المؤمن؛ كله خيرٌ كما قال خيرُ الأنام «صلَّى اللهُ عليه وسلَّم»، فإذا ما أصابته سرَّاء؛ شَكَر، وإن أصابته ضرَّاء؛ صَبَر.

وكذلك، وعند وقوع البلايا، أيًّا كان لونها؛ يقول لنا القرآن الكريم بما لا يدع مجالاً للشك، أن ذلك قد يكون بسبب عملنا، إمَّا اختبارًا من اللهِ تعالى لإيماننا؛ فنربح لو صبرنا وشكرنا وواجهنا الأمور بإيجابية، أو تنبيهًا من اللهِ سبحانه لكي نستفيق، أو عقابًا دنيويًّا لنا نستحقه بذنبٍ عظيم أذنبناه، أو بتقصير.

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [سُورَة «آلِ عِمْرَان» – الآية ١٦٥]، ويقول أيضًا: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [سُورَة «النِّسَاء» – الآية ٧٩].

وحتى في الحالتَيْن الأخيرتَيْن، التنبيه والعقاب؛ هذه نجد فيها من اللهِ خيرًا. فهو ينبهك لكي لا توغل في ذنوبك، أو تنتبه لتقصيرك، وفي ذلك مصلحة لك، فنحن لن ننفع الله بعباداتنا، ولن نضرَّ اللهَ لو عصيناه؛ فهو الغنيُّ عن العالمين، وإنما عملنا الصالح يكون لنا، والطالح ينقلب علينا.

وفي العقاب الدنيوي، كرمٌ من اللهِ تعالى؛ إذ أنه يخصم ذلك من رصيد سيئاتك، ويكفِّرُها عن عبده المُبتلى، فيتجلى كَرَمُه علينا ورحمته بنا.

وبالتالي؛ فإن الحالة الوحيدة التي ينبغي أن يخافَ فيها المسلم قَدَرَ اللهِ تعالى، هي أن يكون هذا الحَدَث، هو علامة غضبٍ من اللهِ عز وجل.

وفي هذا كله هناك مواقف وكلامٌ للرسول الكريم «صلَّى اللهُ عليه وسلَّم»، يؤكده، وهو مُرَبِّينا الأول، وقدوتنا الأولى.

فهو عندما تعرَّض لسفاهة السفهاء في الطائف؛ لم يقف لكي يعاتب ربَّه، ولم يسأله

أين أنتَ ولماذا لا تحميني وتنقذني مما أنا فيه. مطلقًا. بل إنه عليه الصلاة والسلام أوعز الأمر إلى أنه قد يكون بسبب يخصه ويخص علاقته بربِّه، فنجده يقول في دعائه الذي رواه الطبراني وآخرون: «إن لَّم يكن بكَ عليَّ غضبٌ فلا أبالي، غير أنَّ عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقتْ له الظلمات، وصلُحَ عليه أمر الدنيا والآخرة، أنْ تنزِلَ بي غضبك، أو يحلَّ عليَّ سخطُك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وبالرغم من أن بعض الرواة ضعَّفوه؛ إلا أن أصحاب السِّيَر رووه، ولم يكن التضعيف فيه قادحًا بلغة أهل العلم، وفيه منطق جميل يقبله العقل وتقبله النفس.

وفي ذلك أيضًا، فإننا ينبغي أن نتحلَّى بمُدْرَكٍ مهم، وهو أن نفهم أن أي بلاء يقع علينا بذنب أذنبناه؛ فهذا فيه تخفيف من اللهِ تعالى. نحن لا ندرك ولا نفهم عظيم المهام الموكولة إلينا، ولا عمق تقصيرنا، ولا خطورة الأمانة التي كُلِّفْنا بها.

ولأن اللهَ تعالى يعلم ذلك؛ فهو حتى عندما يوقع بنا عقابَه في صورة بَلِيَّة أو ما شابه؛ يكون رفيقًا بنا. يقول تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سُورَة «النُّور» – الآية ١٤].

.....

.....

مما سبق؛ فإننا نجد أن هناك الكثير في ديننا العظيم هذا ينبغي أن نعلمه، وبالذات في أوقات النوازل والجائحات، والتي تبلغ فيها القلوب الحناجر، ويظن فيها الناس الظنون.

هنا من المفيد التنويه إلى أن الإسلام رحيم بالناس، ففي مثل هذه الأوقات؛ لا ينبغي للإنسان المسلم إذا ما اعترضته عوارض الضعف النفسي ووصل إلى مرحلة من سوء الظن بالله تعالى، أو الضيق بما قدَّره وأنزله عليه، وألا يقسو في الحكم على ذاته ومعاقبتها نفسيًّا.

فهذا الموقف واجهه أكثر الناس إيمانًا؛ الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وقت غزوة حُنَين، وذكره القرآن الكريم بوضوح، ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [سُورَة «التَّوْبَة» – الآية ٢٥].

ولم تخبرنا كُتُب التاريخ الإسلامي والسِّيَر، أن اللهَ تعالى قد عاقبهم على أنْ ضاقوا بقضائه عليهم في بداية المعركة من شدَّة وما بدا لهم أنه هزيمة، فهو خالقهم، وهو أعلم بضعف الإنسان، وبنوازعه وعوارضه، فيعذرهم. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سُورَة «المُلْك» – الآية ١٤].

وفي حقيقة الأمر؛ فإن هذا الباب واسع لو تناولناه في المجال العلمي الشرعي، وأدلته عديدة، ولكن هذه الآية العظيمة تلخِّص كل شيء، وتلخِّص كما هو أسلوب القرآن العظيم في كلمات قليلة، ما ينبغي أن نؤمن به، وما ينبغي أن نتعامل به مع قضاء الله تعالى وقَدَره: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [سُورَة «النَّمْل» – الآية ٦٢].

..*

الفَصْلُ الثَّانِي

في كيفية فهم وتربية الأطفال..
دروس مستفادة مِن مشروع «إشراقة»

الاعتماد على النفس في الصِّغَر..
نحو صناعة أفضل لمستقبل الطفل

من البديهيات الغائبة عن مجتمعاتنا في المجال التربوي، قضية على أكبر قدرٍ من الأهمية في المجال العام، وترتبط بأمور على أعظم قدرٍ من الأهمية، بما في ذلك حتى قضية تعظيم المناعة الذاتية للمجتمع، وهي قضية تربية الطفل على الاعتماد على نفسه.

وهذا الحديث ليس من قبيل المبالغات؛ حيث أثبتت التجارب التاريخية، والنظريات التربوية الحديثة، أن تنشئة الطفل على الاعتماد على نفسه، هي اللبنة الأهم في مجال التنمية البشرية، وتعظيم قوة المجتمع.

وتكمن أهمية عبارة «تنشئة الطفل على الاعتماد على نفسه» بالصورة التي تحقق الكفاءة والفاعلية اللازمتَيْن للنجاح في حياته، فيما تتضمنه من تفاصيل كثيرة، من بين أهمها تنمية مهارات وقدرات الطفل، وغرس المعارِف الأساسية اللازمة لكي يستطيع التعامُل مع مفردات الحياة من حوله، ويواجه الصعاب مستقبلاً، أو حتى خلال مرحلة الطفولة نتيجة طارئ مثل حربٍ مفاجئة أو رحيل الأب أو الأم.

وتكمن ضرورة تحسين قدرة الإنسان على الاعتماد على نفسه في مرحلة الطفولة، في قضية أساسية، وهي أنَّ عملية غرس القدرات والمهارات والمعارف، تكون وفق الدراسات الحديثة في مجال التربية وعلم النفس وحتى الطب البشري، في أفضل حالاتها في مرحلة الطفولة.

ومن البديهي في دراسات العلوم الإستراتيجية، أن العامل البشري هو أهم عوامل قوة الدولة، وتعضيد مناعتها الذاتية.

ولقد بدا ذلك في أجلى صوره خلال الحرب العالمية الثانية؛ حيث إن الذي وَقَى بريطانيا والأمم الأخرى المتقدمة في المجال السياسي والاجتماعي والتنموي وقتها من السقوط؛ كان هو المواطن المؤهَّل للحياة في أشقِّ الظروف، من خلال ما اكتسبه منذ صِغَره من مهارات ومعارف في مختلف المجالات.

وحتى الأمم التي سقطت تحت الاحتلال النازي في حينه؛ فإن هذا الفرد الذي نشأ مُنذ الصِّغر، نشأةً سليمة، وعلى رأسها الاعتماد على النفس وما يتصل به من قدرة على الفِعْل الإيجابي، هو الذي كان أهم عوامل عدم تثبيت المحتل في البلدان والدول التي احتلَّها.

وحتى في تاريخنا في المجتمعات العربية، وبعد ظهور الإسلام؛ فقد كان هذا الأمر على أكبر قدرٍ من القيمة والتأثير – بعد التربية النبوية للجيل الأول من المسلمين – في بزوغ وسيادة دولة العرب المسلمين على العالم القديم كله في أقل من ثلاثة عقودٍ.

فكُنَّا نرى فيمَن هم في سِنِّ المراهقة وشرخ الشباب، نماذج قادرة على قيادة الجيوش وإدارة شؤون الأمصار المفتوحة، مثل أسامة بن زيد (رَضيَ اللهُ عنهما).

وبالرغم من ضخامة هذه المسؤولية على الآباء والأُمَّهات والمربِّين، وبالرغم من أثر وخطورة هذه المهمة، إلا أنها ليست بالصعوبة التي يتصورها البعض؛ حيث إنَّها – وبالذات في عصرنا الحالي الذي يشهد تطورًا كبيرًا في أساليب التربية والتلقين والمعرفة المختلفة، مهمة سهلة ويمكن تبسيطها من خلال بعض الأدوات والوسائل التي متى أجادها الأب والأم في البيت أو المربِّي في المدرسة؛ فإنها تحدِث أعظم الأثر.

مبدئيًّا؛ تُحدِّد الأخصائية النفسية شيرين خليل النقطة الزمنية التي يمكن أن يبدأ الطفل فيها في الإحساس بذاته وبشخصيته المستقلة، وبالتالي، البدء في تأهيله للاعتماد على نفسه، عن سِنِّ عامٍ ونصف، أو ١٨ شهرًا.

فبحسب دراسات طبية ونفسية كثيرة؛ فإنه في هذه السِنِّ، أو عند سِنِّ عامَيْن، تبدأ ذاكرة الطفل في التكوُّن، وبالتالي، تتشكَّل قدرته على إدراك العالم الخارجي من حوله، والبدء في التعامل معه ومع مفرداته.

وبطبيعة الحال؛ فإنَّ هناك فروقًا فردية في هذا المُقام؛ حيث يمكن لأطفال في سِنٍّ أدنى من ذلك، تكوين مهارات أفضل في مجال الانتباه والإدراك، أو يتأخرون إلى سِنٍّ أكبر من ذلك، لكن الطبيعي في هذا الأمر، هو سِنٌّ ما بين ١٨ إلى ٢٤ شهرًا.

ولكل مرحلة من مراحل الطفولة المبكِّرة أو المتأخِّرة، والتي هي الأهم في تشكيل شخصية الإنسان فيما بعد عندما يكبُر، وإما أن يتم تأهيله فيها – بشكل عام، وليس فقط في نقطة الاعتماد على النفس – أو يواجه متاعب مُستَقبَلاً؛ نقول إنه لكل مرحلة من هذه المراحل، وسائل وآليات لتعويد الطفل على الاعتماد على النفس.

ويبدأ هذا بأبسط الأمور. تعويده على تناول الطعام وتغيير ملابسه، وعدم الاعتماد على الآخرين في السير، وعدم الاستجابة له عندما يطلب أن يحمله الأب أو الأم خلال السير في الشارع.

وهذه الأمور أهميتها ليست في نقطة الاعتمادية على النفس فحسب؛ بل لها أهمية أخرى على المستوى الطبي؛ حيث إنها تحسِّن من قدرة الطفل على الاستجابة العصبية وتحريك يدَيْه مع أعضاء جسده الأخرى، حركات معقدة ومنسَّقة، وهو ما يفيد كذلك في تطوير قدراته العقلية والعصبية.

وهنا ثَمَّة نقطة مهمة ينبغي على الآباء والأمهات مراعاتها عندما يبدأ الطفل في الذهاب إلى الحضانة والمدرسة الابتدائية، وهي ضرورة الاطلاع على طريقة التربية والتعامل معه في الحضانة أو المدرسة؛ حيث ينبغي أن تتكامل الجهود التي يقوم بها الأب والأم في البيت مع جهد المؤسسة التربوية والتعليمية التي يذهب إليها، فلا يكسَل إذا ما لم تكُن هذه المؤسسات على القدر المناسب من الاهتمام بهذه الأمور.

وبالمثل في حالة وجود مُرَبِّية في البيت؛ حيث ينبغي ملاحظة سلوكها مع الطفل، والتنبيه عليها بعدم الإفراط في تدليله، وتركه – بعين المراقبة فحسب – يقوم بما يريد أن يقوم به، مع التدخُّل وحمايته في الوقت المناسب، لو أقدِم على فِعْلٍ أكبر من قدراته، أو أوقعه في خطرٍ ما.

كما أن الأب والأم – بخلاف ما يقوم به الكثير من أولياء الأمور في كل هذه المراحل – يجب عليهم مساندة الطفل إذا ما ظهرت عليه بوادر الاستعداد للتعلُّم الذاتي والاعتماد على النفس؛ فيتركانه يبدِّل ملابسه ويتناول طعامه ويحضِر أشيائه الخاصة، ويرتِّب مكان نومه وأشيائه وألعابه، وهكذا.

كما أنه من المهم في مرحلة الطفولة المبكِّرة ترك الطفل يتعامل مع الحمَّام وحده، بحيث يكون قادرًا على استعمال أدوات النظافة المختلفة، وتكوين مهارات أكثر تعقيدًا في استعمال يده مع الأشياء المختلفة، لأن هذا – كما تقدَّم – لا يفيد الطفل في قضية تنمية السلوك وتطويره فحسب، وإنما كذلك في تطوير مهاراته الحركية.

وفي سنِّ الطفولة المتأخِّرة، يمكن تعويد الطفل على بعض الأمور الأكثر تعقيدًا وأهمية من مسألة الطعام والملابس، أو استعمال الحمَّام، مثل التعامل مع الكهرباء، والخروج إلى الشارع العام وحيدًا، وشراء بعض المستلزمات للبيت.

و"تقليد الكبار» ليس أمرًا سلبيًّا في هذا المُقام كما يتصوَّر البعض، وإنْ كان من المهم ترشيد هذه النقطة في بعض الأمور التي لا تليق أو لا تتناسب مع مرحلة الطفولة، ولكن من المهم ترك الطفل «يُقلِّد الكِبار» بشكل عام، وإشعاره بأنَّه «منهم»، أي من الكبار، وتعويد الطفل الذَّكَر على وجه الخصوص، على أنه قد صار رجلاً مسؤولاً، ويتحمَّل مسؤولية أفعاله.

وهنا قد يكون من المناسب عقابه على الأخطاء التي لا يجب عليه «كرجُل» أن يرتكبها؛ حيث هذا من شأنه تعضيد هذا الإحساس لديه.

وللأم دورٌ أكبر في هذا المُقام بخلاف الشائع؛ حيث إن الفارق بين كونه «صغيرًا» أو «كبيرًا»، يكمن في كيفية نظر أمِّه له، وطريقة تعاملها معه، وهنا يجب على الأم إخفاء قلقها على الصغير، وتعليمه بعض أساليب التعامُل الخشن – وليس العدواني – مع العالم الخارجي، بما في ذلك بعض الأنشطة التي تشتمل على ألمٍ أو جهدٍ مُتعِب.

.....

وفي الأخير؛ فإن هذه الأمور لها الكثير من التفاصيل الفنية التي يمكن أنْ تملأ دراسات ومجلدات كبيرة، ولكن لن تكون معرفة هذه التفاصيل مهمة أو مفيدة إذا ما لم يكن هناك إدراكٌ بأهمية هذه القضية من الأساس، وهو ما يجب على تربويينا ودعاتنا في المحاضن المختلفة، العمل على غرسه كفكرة أساسية لدى الأجيال الجديدة من الآباء والأمهات.

..*

الموسوعات المُصَوَّرة وأهميتها في تنمية ثقافة الطفل والناشئة

ناقشنا في مواضع سابقة من الحديث، بعض تأثيرات الظروف التي أدى إليها وباء «كوفيد-١٩» على حياتنا الفردية والجماعية بشكل عام، على مختلف المستويات.

وكان مما وقفنا عليه، مجال التعليم وتأهيل الأطفال والناشئة في ظل ظروف الوباء، والتي أدت إلى فرض الكثير من القيود على حركة الناس، ومن بين ذلك مثلاً، مسألة ذهاب الأطفال إلى المدارس.

وقلنا إنَّه في هذا الإطار، ساهمت هذه الأحوال في تعضيد بعض الآليات المُستَجَدَّة، مثل التعليم عن بُعد، وكذلك في استعادة بعد الآليات الكلاسيكية القديمة التي كانت قد بدأت في الاندثار، سواء على مستوى التعليم والتلقين، أو على مستوى الترفيه الذي يتضمن محتوىً ثقافيًّا وتنشيطيًّا لمهارات الأطفال والناشئة وقدراتهم، مثل ألعاب «الليجو» وألعاب التركيب الخشبية، وغير ذلك من صور الترفيه التعليمي التي لا تتطلب حركة أو نشاطًا خارج البيوت.

وفي هذا الإطار، يحضر إلى الذهن واحدةٌ من أهم وسائل تنمية ثقافة الأطفال والناشئة في الماضي، قبل ظهور وسائط الحفظ الإلكترونية، مثل الحواسيب والتابلت والهواتف الذكية ذات الشاشة كبيرة الحجم، والمزودة بإمكانية الاتصال بالإنترنت، وهي الموسوعات المُصَوَّرة.

وتضُم هذه النوعية من وسائط المحتوى، مجموعة كبيرة من المجالات، فمنها ما يتعلق بالمعارف العامة، ومنها ما يتخصص في مجال بعينه، وأهمها المعارف ذات الطابع العلمي، وقد يتخصص بعضها أكثر في مجال علمي بعينه، مثل المعارف الجغرافية والتاريخية، أو الكائنات الحية، أو النباتات، وما إلى ذلك.

وتتعدد وسائط العرض بحسب قدرات وسياسات التحرير لدى دور النشر التي تتبنَّى مثل هذه النوعية من الإصدارات.

فمنها ما يقدِّم المعلومة المقروءة في سياقٍ مُصَوَّر ضيِّق لتوفير نفقات الطباعة، أو لاعتبارات تتعلق بمنهجية الموسوعة نفسه؛ حيث يعطي بعض الناشرين الثِّقَل الرئيسي للنَّص المكتوب، وما يتضمَّنه من معلومات أساسية، وقد تكون الصُّور بالأبيض والأسود، أو قد تكون مُلَوَّنَة، ومنها ما يعطي هذا الثِّقَل للصورة التعبيرية، والتي تُعتبر أكثر تأثيرًا لدى بعض المراحل السِّنِّيَّة، وفي الغالب ما تكون الصُّور في هذه الحالة مُلَوَّنَة.

ومن بين النوعيات النادرة في هذا المجال، لأنها تتطلب مهارات تصميم وقدرات طباعية أكبر، هي تلك النوعية التي تربط المعلومات بمُجَسَّمات مُلَوَّنة، ولم يكن يطبعها على مستوى العالم العربي سوى دار المعارف ودار الشروق بين القاهرة وبيروت.

وفي الفترة الأخيرة، عادت هذه النوعية من المطبوعات المُجَسَّمة، ولكن في صورة أصغر حجماً، وليست في إصدارات موسوعية؛ حيث تقدِّم – مثلاً – دار نهضة مصر بالقاهرة، قطوفًا علمية لسِنِّ ما بين خمس وثماني سنوات، وليس في إطار موسوعي تجميعي لأنَّها بالفعل صارت باهظة الثمن بسبب ارتفاع أسعار مستلزمات طباعتها.

فالآن، تُقدِّم دور النشر هذه النوعية من المطبوعات، وبعضها يكون بالتعاون مع دور نشر عالمية، مثل «ديزني»، في صورة كُتَيِّبات صغيرة، بحيث تلاءم غالبية مستويات الدخول، وإذا ما كان الأب أو الأم من أصحاب الدخول العالية؛ فإنَّه يكون بمقدورهم في هذه الحالة تكوين موسوعة متكاملة من خلال شراء مجموعة كاملة منها.

كذلك قد تلجأ بعض دور النشر إلى إخراج موسوعات مُصَوَّرة في صورة سلاسل، مثلما تقوم «ناشيونال جيوجرافيك»؛ حيث تصدر سلاسل موسوعية لو صَحَّ التعبيرـ مثل «ناشيونال جيوجرافيك تبحث في...» أو «مشاهدات علمية»، أو في صورة مجموعات مُستَقِلَّة عن بعضها البعض ولكنها في سياق موضوعي واحد، مثل الموسوعة العلمية المُبَسَّطة للناشئين التي أصدرتها دار الشروق القاهرية، وتضمَّنت مجموعة من الدراسات العلمية المُبَسَّطة للعالمَيْن الإسبانيَّيْن نوربرت لاندا وباترك باورل.

وبشكل عام، تراعي دور النشر العربية والأجنبية في هذه النوعية من الإصدارات، تقديمها في قالب طباعي جذَّاب، فتكون الأوراق غالبًا من النوع المصقول، أو «الأوفست»، وهو نوع من الورق بجانب أنَّه يعطي للصُّورة جاذبية أكبر لدى الطفل، خصوصًا لو كانت مطبوعة بألوان واضحة برَّاقة، فإنَّه أيضًا يمتاز بالقوة فيتحمَّل تعامل الأطفال غير الحريص بالشكل الكافي معه، بينما لو كانت نوعية الورق الطباعي عادية؛ لتمزَّقت على الفور.

ومن بين أهم الموسوعات الشاملة التي صدرت باللغة العربية، موسوعة «المعرفة» الشهيرة، التي كانت تصدرها مؤسسة «الأهرام» في السبعينيات، في صورة أعداد أسبوعية، كانت تصدر الخميس من كل أسبوع، وصدر منها ٣١٦ عددًا، وكان يرأس

اللجنة العلمية لها، الدكتور محمد فؤاد إبراهيم، وموسوعة «العالم بين يديك»، أو «كل شيء عن...»، وصدرت عن في عشرة مجلدات عن دار «سيليكا» السويسرية، وترجمها إلى العربية، كاتب الأطفال الأشهر في العالم العربي، يعقوب الشاروني.

ولقد سَعَت بعض دور النشر العربية مثل «أطفالنا» و«سفير» في مصر، إلى إخراج إصدارات مماثلة حاولت المزج بين المعلومة العلمية وبين الطابع الذي يعكس قيمنا وعقيدتنا كمسلمين ومفاهيمنا للخلق الربَّاني وأهمية وضرورة التدبُّر فيه كما أمرنا القرآن الكريم.

وفي حقيقة الأمر؛ فإن هذه النوعية من الموسوعات من الأهمية بمكان إعادة الاعتبار لها داخل الأسرة التي تسعى إلى تدعيم مهارات وثقافة أبنائها منذ الصِّغَر، لأكثر من سبب.

السبب الأول، أنه من غير الممكن استبدال هذه النوعية من المنشورات والمطبوعات الورقية بمثيل إلكتروني؛ حيث من المستحيل مطالعة مثل هذا المحتوى «الميجا» أو الضخم في كل شيء، سواء في الحجم أو في طبيعة المحتوى، على أي وسيط إلكتروني، حتى الوسائط ذات الشاشات الكبيرة، مثل الحواسيب و«اللاب توب».

فبجانب الإرهاق الذي تتسبب فيه ساعات المكوث الطويلة أمام مثل هذه الوسائط، للعين وضغط الدم وما إلى ذلك؛ فإنَّ الوسيط الوحيد القادر على الربط بين النَّص والصورة بوضوح في مثل هكذا محتوى، هو الوسيط الورقي.

السبب الثاني، أنَّه من الصعب في ظل ضخامة مثل هذه الأعمال، أنْ يتم رفعها على الإنترنت، مع كونها ذات طبيعة نوعية تتطلب مساحات واسعة لتخزينها في الفضاء

الافتراضي، وسرعات إنترنت كبيرة غير متوافرة في الواقع في كثير من بلدان عالمنا العربي، لتحميلها، وكذلك وسائط ضخمة لتخزينها مع اشتمالها على صور كبيرة يجب أنْ يتم تصويرها بشكل واضح للاستفادة منها، ولو تم رفعها بـ«**Pixels**» أقل؛ سوف تفقد قيمتها ودورها.

كما أنَّ الكثير من الدراسات التي أُجرِيَت في الغرب والدول الأخرى المتقدمة مثل اليابان على المحتوى الإلكتروني، وجدَتْ أنَّه مهما بلغ تركيز القارئ مع الوسيط الرقمي المقروء أو المُصَوَّر؛ فإنَّ قابليته للنسيان أكبر بكثير مما لو طالع ذات المحتوى على وسيط مطبوع على الورق.

ولذلك؛ فإنَّ لا يزال للكتاب الورقي – بشكل عام – قيمته وضرورته مهما طال الزمن، ومهما تطورت وسائط المحتوى الرقمي الأخرى.

وفي حقيقة الأمر؛ فإنَّ هناك لمثل هذه النوعية من الإصدارات أوجه أهمية عديدة، أُهمِلَتْ بالتدريج في العقود الثلاثة الأخيرة مع تطور الوسائط الرقمية وشيوع الإنترنت والفضائيات.

ومن بين أوجه الأهمية هذه، ربط الطفل – الذي هو في الأصل غير قادر بالشكل الكافي على التعامل بالفائدة المرجوة مع الوسائط الرقمية – بهذه النوعية من المحتوى شكلاً وموضوعًا؛ حيث مجرَّد أنْ يكون الطفل في عالم يتضمن هذه النوعية من المطبوعات؛ هذا في حَدِّ ذاته على أكبر قدر من الأهمية في توجيه الطفل ورسم شخصيته واهتماماته بعيدًا عن توافه الأمور.

وجه الأهمية الآخر، هو نوعية المحتوى الذي تقدِّمه؛ حيث إنَّ مثل هذه الموسوعات تأخذ الطفل في سِنٍّ مُبَكِّرة إلى أقصى أطراف الأرض، وإلى أعماق الكون ذاته، وهو

ماكثٌ في مكانه، وربطه عقليته بالكثير من المعارف التي تتطوَّر به، مما يُوَسِّع من مداركه ومفاهيمه.

ولعل الاعتبارات التي فرضها علينا فيروس «كورونا المستجد»، تُفسِح المجال أمام إعادة الاهتمام بمثل هذا النوع من الإصدارات الثمينة القيِّمة.

..*

أهمية تحوُّل علوم الاجتماع والسلوك إلى معارف عامة عند الآباء

بكُلِّ تأكيد، لم تعُد حياة الإنسان بسيطة، ولم تعُد حتى يمكن وصفها بالتشابُك، وإنَّما صارت على أكبرِ قدرٍ من التعقيد، ومُرَكَّبة «**Complexity**»، بحيث لم يعُد هناك عاملٌ واحد يتحكَّم حتىً في حياة الفرد الخاصة، وإنَّما باتت أدق وأكثر الأمور خصوصية وفردانية، تتعرض لعوامل تأثير كثيرة، بما في ذلك ما هو سياسي وما هو تقني، يتعلق بالسياق العام لحياة المجتمع.

بل إنَّ هذا التشابُك والتعقيد وصل إلى درجة أنَّ بعض الأمور التي قد تحدث في بلدٍ يبعُد عنَّا آلاف الكيلومترات، تؤثِّر على حياتنا اليومية بشكل مُباشِر.

وتفرض هكذا أوضاع على الإنسان، الرشيد، مجموعة من الأمور التي يجب عليه الالتزام بها، إذا ما أراد أن يحيا حياةً سليمةً مُنتِجَةً، ويحافظ فيها على كرامته الإنسانية، ويحقق فيها أحلامه وطموحاته.

ومن بين أبرز هذه الأمور، ألا يخضِع حياته وسياقاتها لأي شكلٍ من أشكال العشوائية، وأنْ يتفادى القرارات والتحرُّكات غير المدروسة، بالذاتٍ في الأمور المفصلية والفارقة، التي سوف تشكِّل حياته فيما بعد.

ولعل أهم أدوات ذلك، هو العلم. أنْ يتقن الإنسان فهم العلوم ذات الصِّلَة بسياقات حياته وقراراته فيها، وأنْ يتقِن – كذلك – تطبيقها وتطبيق قواعدها

بالصورة التي تحقق الكفاءة والفاعلية «**Effectiveness and Efficiency**» في القرار المُتَّخَذ، والتحرُّك الذي يتم بقدر المستطاع بطبيعة الحال؛ حيث الإنسان العادي غير المتخصِّص لا يستطيع بكل تأكيد الوصول إلى مستوى الخبراء والمتخصِّصين في هذا العلم أو ذاك.

ومن بين أبرز المجالات التي ينبغي على الإنسان العادي تطبيق هذه المبادئ فيها، تربية الأبناء.

فمِن نافل القول، التأكيد على الحقيقة البديهية المتعلقة بأهمية عملية التربية، بمفهومها الشامل، ليس على مستوى التنمية فحسب، وإنما وصولاً إلى مستوى النهضة الحضارية الشاملة لأيِّ مجتمعٍ وأيَّة أُمَّة.

وعندما نتحدَّث عن «المفهوم الشامل» للتربية؛ فإنَّ ذلك يتضمن طائفةً واسعةً من الأمور؛ أكبر من التصوُّر التقليدي للتربية لدى كثيرين في بلداننا ومجتمعاتنا العربية والمسلمة، وهو ذلك المتعلق بالسلوك والأخلاق؛ حيث يتضمن المفهوم الشامل للتربية، بجانب ذلك، التعليم، وتنمية المهارات والقدرات، وتحسين مدركاتهم وقدراتهم العقلية والبدنية.

وهو معنىً قريبٌ للغاية من مفهوم التنمية البشرية، ولكن في السياق المتعلِّق بالتنشئة مُنذ الصِّغَر.

وكذلك يتضمن الأمر الكثير من السياقات خارج نطاق الأسرة؛ حيث يشمل ذلك مؤسسات وسياقات مثل المدرسة والنادي، ومثل جماعات الأقران والجيران، وما اقترب واتصل بذلك من مفاهيم.

وفي المجتمعات الغربية، وتلك التي حققت قدرًا مِن التطوُّر في المجال الاجتماعي؛ فإنَّه، ومنذ دخول الإنسانية مرحلة الثورة الصناعية الرابعة، المرتبطة بالاستخدام المكثَّف للمعلومات والتقنيات الرقمية وما اتصل بذلك، وما قادت إليه من صور التعقيد والتشابُك المشار إليه؛ بات من البديهي أنْ نجد هناك مراكز لها مقار على أرض الواقع، أو منصَّات إلكترونية تقدِّم للوالدَيْن منظومة المعارف، الأساسية أو المُتَخصِّصة عن قواعد الأمومة والأبوة السليمة، وكيفية تربية الأبناء وتنشئتهم بالصورة الصحيحة.

ولقد وصل التطور في هذا المجال؛ لجهة فهم المجتمع العادي لأهمية الإلمام بمثل هذه المعارف، إلى مستويات عميقة بالفعل، سواء فيما يتعلَّق بالحصول على دورات متخصصة في مجال بعينه، مثل التعامُل مع أصحاب الحالات الخاصة، مثل الأطفال المعاقين بصور الإعاقة المختلفة، أو الأطفال العدوانيين، أو فائقي الذكاء، أو ما شابه، أو الذهاب لمرحلة الدراسة ما بعد الجامعية والتخصص في هذه الأمور فيها.

ونتكلَّم هنا عن سلوك يقوم به الأناس العاديين، وليس المُتَخصِّصين أو العاملين في السلك الأكاديمي.

ويبدأ ذلك من مستوى تصحيح الخطأ والتوجيه، وحتى يصل إلى مستوى التهيئة الشاملة للمستقبل، وتشكيل الهوية من خلال التنشئة الفكرية والتلقين الصحيح للحقائق والمعلومات المتعلقة بالسياق المجتمعي الذي وُلِد وينشأ فيه الطفل، ويشمل ذلك الهوية الدينية والقومية والثقافية، وغير ذلك من مستويات الهوية.

وهناك منظومات أساسية مهمة من العلوم في هذا الصدد؛ ينبغي على كُلِّ أبٍ أو أُمٍّ الإلمام بها في هذا الإطار السابق، وهي: علم الاجتماع، وعلم النفس، والعلوم

السلوكية، بجانب بعض المعارف الطبية الأساسية في حال التعامُل مع بعض الحالات الخاصة.

وهنا – كما جرى الإيماء سريعًا في السطور السالفة – تنبغي الإشارة إلى أنَّ مفهوم الحالات الخاصة أو الـ«**Special cases**»، لا يتعلق فقط بأصحاب الهِمَم من أبنائنا المعاقين، وإنَّما هو مفهوم أوسع بكثير، ويعني مختلف الحالات من الأطفال، والكبار على حدٍ سواء، الذين هم بحاجةٍ إلى معاملة مختلفة أو «خاصة» عن غيرهم من أقرانهم، لأنهم «مختلفين» عن الأشخاص الطبيعيين؛ صغارًا كانوا أَم كبارًا.

ففائقو الذكاء، يندرجون أسفل تصنيف «الحالات الخاصة»، وكذلك الأطفال العدوانيين كما سبق القول، وأيضًا الأطفال والأشخاص أصحاب النشاط الزائد أو الانطوائيين، وبطبيعة الحال، المُتوحِّدين؛ حيث التَّوَحُّد مُصنَّف على أنَّه أحد صور الإعاقة.

وهذه الأمور، لها الكثير من الجوانب والأعراض البدنية، والتي يتطلَّب التعامُل السليم معها الكثير من المعلومات الطبية، مثل معدلات استهلاك السُّكَّر وضغط الدم، أو كيفية ممارسة تمارين العلاج الطبيعي، وغير ذلك.

وفي الحقيقة، فإنَّ صُوَر الإفادة المتحققة من ذلك الأمر، تفوق حتى المدى القريب المتعلق بتنشئة طفل أو طفلة في أسرةٍ واحدةٍ، وإنَّما يصل الأثر إلى مستويات مجتمعية بعيدة المدى، وذات أهمية كبرى.

فتنشئة الطفل على السلوك السوي، ووفق منظومة من القدرات الجيدة، يُساهِم في تحقيق التنمية، ويحفظ للمجتمع استقراره وأمانَه، ويحقق الكثير من متطلبات النهوض الحضاري كما تقدَّم.

..*

أهمية وكيفية صياغة اهتمامات الأطفال والمراهقين وتدعيم هواياتهم

لا تقف عملية التربية والتنشئة عند الحدود القريبة التي تنظرُ بها غالبية الأُسَر في مجتمعاتنا العربية والمسلمة؛ حيث إنها عملية تتسَّم بالتعقيد وكذلك بالتنوُّع والتعدد في مساراتها ومستهدفاتها، ولاسيما في ظل التعقيد الذي طرأ على حياة الإنسان، وخصوصًا في سوق العمل ومتطلباته.

وهنا لابد لنا من الوقوف عند مستهدَف عظيم الأهمية لعملية التربية والتنشئة بشكل عام، ولكنه لا يبدو حاضرًا عند شرائح عريضة من أولياء الأمور في مجتمعاتنا، وهو تهيئة الطفل والمراهق لخوض غِمَار الحياة العملية، وتأهيله للقيام بأدوار مهنية واجتماعية متعددة.

وهذا للغريب، هدفٌ حاضرٌ عند الشرائح الأدنى في التراتبية الاجتماعية منه لدى فئات المُتعلمين؛ حيث إنَّ أولي الأمر في الأُسَر الأكثر فقرًا والأقل حظًّا من التعليم، تهتم فيما يبدو بشكل أكبر بنقطة تهيئة الطفل للحياة العملية مبكِّرًا.

ويكون ذلك في الغالب بالنسبة للأطفال الذُّكور، ذات المجال الذي يعمل فيه والده، والذي يكون في الغالب يعمل في مجالات الحِرَف اليدوية والتي تتطلَّب مهارات بدنية أكثر من أي شيءٍ آخر، بينما الأطفال الإناث تتم تنشئتهنَّ على أداء أدوارهن الأنثوية التقليدية؛ في مجال رعاية البيت وتربية الأبناء.

هذه الرؤية التي فرضت الظروف الاقتصادية والمعيشية على هذه الطبقة أنْ تكون واعيةً بها، لا تكون واضحةً بالقدر الكافي عند الطبقة المُتَعَلِّمة التي تلقَّت تعليمها هذا في منظومات تعليمية غير مُؤهَّلة بالشكل الكافي لمواكبة متطلبات العصر وتطوراته.

فحتى قضية تهيئة تلاميذ وطلبة المدارس والجامعات لسوق العمل؛ أمرٌ غائبٌ عن منظوماتنا التعليمية في الأصل، وحتى سنواتٍ قليلةٍ مضت، لم هناك أيُّ رابطٍ بين هذا وذاك، حتى انتبهت بعض البلدان العربية لذلك، مثل مصر والسعودية، وبدأت في تحسين منظومة العملية التعليمية والأسس التي تقوم عليها لملائمة اعتبارات سوق العمل، ولاسيما فيما يتعلق بالاهتمام بالتعليم الفنِّي.

وفي حقيقة الأمر؛ فإنَّ أول هذه القصة يبدأ من المنزل، وهو بات من الأمور البديهية في الأُسَر والمجتمعات التي أحرزَت قدرًا من التقدُّم في المجال الحضاري في عصرنا الراهن؛ حيث تبدأ عملية التأهيل منذ فترة الطفولة المبكرة.

وتُعَرَّف الهواية «**Hobby**» بأكثر من معنىً، منها أنَّها نشاطٌ منتظمٌ أو اهتمامٌ يُمَارَس في الغالب خلال أوقات الفراغ بقصد المتعة أو الراحة، وتشمل مجالات عديدة، منها ما هو يتعلق بجمع الأشياء أو التعارُف أو المجالات العلمية، أو الكتابة والفنون المختلفة.

وبالتالي، هي ممارسة لفعلٍ معيَّن تُحبه النفس مع الحرص على إتقانه والتفنُّن فيه، تحركها نوازع ذاتية، وبشكلٍ عفويٍّ، والمهم أن نعرفه عنها أنَّها قد تكون إمَّا عادةً فطرية لدى الإنسان، مولود بها، أو مكتسبة من خلال البيئة المحيطة أو تعلُّمِها.

وأهمية اكتشاف الميول والمواهب لدى الأطفال في سنٍّ مبكِّرةً له الكثير مِن الفوائد، منها تفريغ الطاقات بشكل سويٍّ وسليم، وصقل هذه المواهب، وتنمية مهاراته

«Skills»، وبالتالي بناء الشخصية ومساعدة الطفل على الاكتشاف، والتشجيع على وضع أهداف مستقبلية بالنسبة له.

ويبدأ ذلك كله مع الأطفال بعملية هي أصل البحث العلمي السليم، وهي الملاحظة؛ حيث تبدأ التجربة العلمية بها، ثم تتطوَّر إلى التجريب، قبل أنْ يتم التوصُّل إلى الفرض الصحيح وتطبيقه.

وبإسقاط هذا المنطق على دور الأبِ والأمِّ في مرحلة الطفولة المبكِّرة ثم المتأخِّرة للأبناء؛ ذكورًا وإناثًا؛ فإنَّه من الضروري العمل على مراقبة الطفل وملاحظة ما هو أكثر ميلاً له من الأشياء ومجالات الاهتمام.

وهذا لن يتأتَّى من دون ثلاثة أمور. الأول، توفير الحَدِّ الأدنى مِن الوسائل التعليمية وأدوات تنمية المهارات المختلفة، علىً أنْ تكون مُتَنوِّعة مِن أجل توفير الحد الأدنى من الفهم لميول واهتمامات الطفل من خلال هذا التنويع الذي يغطِّي الاحتمالات المختلفة لهذه الاهتمامات؛ مهارات ذهنية/ يدوية.. إلخ.

الأمر الثاني، الانغماس أكثر في عالم الطفل أو الطفلة، مِن خلال منحهم الوقت والاهتمام الكافيَيْن، بحيث تتوافر المعرفة الضرورية بطبائع الأبناء، وماذا يحبون وماذا لا يميلون إليه، وهكذا.

الأمر الثالث، هو ضرورة أنْ يتعمد الأبُ والأُمُّ إلى تثقيف أنفسهم بقواعد التربية السليمة، وكيفية فهم الأطفال واكتشاف ميولهم ورعايتهم.

وهو أمرٌ قد يتطلَّب الحصول على بعض الدورات السريعة، وشراء بعض الكتب والموسوعات العلمية ذات اللغة البسيطة السهلة، أو الاطلاع على بعض الدراسات والمقاييس المُستَخدَمة في ذلك من خلال شبكة الإنترنت.

بعد مرحلة اكتساب هذه المعارف، ودراسة الأطفال مزاجيًّا ومهاريًّا، وميولهم، ينبغي بعد ذلك البدء في تعضيد ما تم اكتشافه من ميولٍ لدى الأطفال، وما يمكن أنْ يكون لديهم من مواهب وما يحبونه من هوايات.

وفي السنوات الأخيرة، وفي ظل انفتاح الأسواق وحركة التجارة الدولية، انتشرت في بلادنا بعض الأدوات التي يمكن أنْ تساعدَ في هذا الصدد، مثل المعامل الكيميائية وأدوات الفيزياء المسلِّية والنماذج الرياضية والهندسية المختلفة.

وهنا تختلف الأمور بالنسبة للأطفال الذكور عن الإناث في المجال التطبيقي، أي في الاختيارات، وإنْ كان مبدأ التعامُل واحد.

فالألعاب والنماذج الخاصة بالهندسة التطبيقية، أكثر ملائمة للأطفال الذكور، بينما المجالات ذات الطابع المجتمعي، مثل التربية والطبابة، أكثر ملائمة للأطفال الإناث، وهكذا.

وأهمية مثل هذه النوعية من الأدوات، أنها تساعد على تحسين مفاهيم الأطفال وتدعيم مواهبهم وميولهم، ولكن من دون اللجوء إلى الأساليب المدرسية التقليدية التي غالبًا ما تكون مكروهة أو ثقيلة الظل بالنسبة للأطفال، بل تكون أقرب إلى الألعاب المسلية التي تجتذب الأطفال.

وهنا يمكن أنْ يلجأ الآباء إلى ترتيب أكثر مِن مسار بالنسبة للطفل وفق نتائج الملاحظة من خلال التعامل معهم، فيمكن تدعيم ما يحبونه، وتحسين مهاراتهم وإسناد مواهبهم بالأدوات اللازمة، ويمكن كذلك خلق مجالات اهتمام أخرى تتناسب مع تصوُّر أولياء الأمور لمستقبل أطفالهم، وفق ما تتطلَّبه قواعد الرشادة؛ حيث يتم بناء ذلك - خلق مجالات اهتمامٍ وميولٍ جديدة - من خلال رؤية أوسع لطبيعة سوق

العمل، والمجالات الواعدة، ومتطلبات التنمية المجتمعية وما ترتبط به مِن مهنٍ.

ولكن ثَمَّة ملاحظة مهمة يجب مراعاتها في هذا الصدد، وهي ضرورة عدم إجبار الطفل على شيء لا يحبه، وإكراهه عليه كمسارٍ تعليميٍّ ثم مهنيٍّ فيما بعد؛ لأنَّ ذلك مِن شأنه الفشل المُحقَّق.

خصوصًا وأنَّنا نحيا الآن في عصرٍ الأمور فيه باتت أكثر انفتاحًا، ولم تعُد السلطة الأبوية أو سلطة الأسرة في ذات قوة الماضي، وبالتالي، قد يقود إكراه الطفل أو المراهِق على أمرٍ ما لا يحبه أو لا يجيده، إلى التمرُّد والانفصال عن الأسرة في الأصل، أو تعمُّد الرسوب في الدراسة إذا ما ارتبط ذلك بإكراهه على الدراسة في مجالٍ مُعَيَّنٍ لا يحبه ولا يجيده.

وبطبيعة الحال؛ قد تعترض ذلك بعض المُعيقات، ولعل أبرزها في عصرنا الحالي، كثرة الانغماس في مواقع التواصل الاجتماعي، وإهدار الكثير من الوقت أمام الهواتف الذكية و»التابلت» ومثل هذه الأشياء بشكل غير نافعٍ أو مفيدٍ. فالمشكلة ليست فيها في حدِّ ذاتها، وإنَّما في إهدار الوقت معها فيما لا يفيد.

بل على العكس؛ فإنَّه مِن الضروري توظيف أدوات التقنية الحديثة في هذا الأمر، أي استغلالها فيما يفيد، مثل تحصيل المعلومات المفيدة والتثقيف الذاتي؛ لا اعتزالها بشكل كاملٍ.

وإنْ كان من المهم هنا التأكيد في المقابِل، على ضرورة الاهتمام بتنمية الهوايات والمواهب من خلال الأدوات التي تنمِّي مختلف حواس ومهارات الإنسان، ولاسيما اليدوية منها، وتلك التي تعمل على تحسين التنسيق بين حواس الإنسان وقدراته الذهنية وأعضاء جسده المختلفة.

..*

تخطيط أنشطة الأطفال والمراهقين بين البيت والمدرسة.. ملاحظات أساسية

تُعتَبر أنشطة الأطفال والمراهقين في البيت والمدرسة وأماكن أخرى مثل الأندية ولدى جماعات الأقران، أحد أهم وسائل التنشئة السَّويَّة للطفل، ومِن دونها لا ينشأ الطفل سويًّا، سواء على المستوى النفسي أو على المستوى السلوكي والمهارات.

وعلى أهمِّيتها، يرى بعض خبراء التربية، ولاسيما الذين جمعوا بين الدراسات التربوية والاهتمام بالتاريخ الاجتماعي والسياسي؛ أنَّ أنشطة الأطفال توازي بل تفوق في كثير من الأحيان الأنشطة التعليمية المدرسية الإلزامية.

ويدلِّلون على ذلك بنماذج من التاريخ السياسي في الشرق الأوسط وأوروبا لرموز من عالم السياسة والحكم، أو في مجال الفنون والآداب، لم يتلقَّوا تعليماً مدرسيًّا، وإنَّما تلقُّوا تعليماً منزليًّا مع منظومةٍ مُخطَّطةٍ مِن الأنشطة، أدَّت بهم إلى أنْ يكونوا قادة حكم ورأي في مجتمعاتهم.

وتزداد أهمية الأنشطة اللاصفِّية والتي تتم خارج المدرسة، والتخطيط الجيد لها، كلما تقدَّمت المجتمعات الإنسانية وتعقَّدت صور الحياةِ فيها، على النحو الذي نعرفه في مطلع القرن الحادي والعشرين، مع سهولة الوصول إلى المعلومات والأفكار المختلفة، بما فيها ما كان في الماضي في منزلة «التابوهات» المغلقة، ومع تأثير التقنية الرقمية على قدرات ومهارات الأطفال الذهنية والطَّرَفية/ الحركية.

فالمدرسة، وما يتم فيها من مناشط، والعملية التعليمية، لم تعُد قادرة على سدِّ الاحتياجات المطلوبة للتنشئة السليمة للطفل، وللمراهِق في ظل هذا التعقيد الذي نراه في حياتنا المُعَاصِرة.

وفي ذلك تقول الدكتورة رحاب صالح برغوث، الأستاذ المساعد لمناهج الطفل بكلية رياض الأطفال، جامعة الإسكندرية، في دراسة لها عن الأنشطة اللاصفِّية ودورها في تنمية بعض مهارات السلوك القيادي لدى طفل الروضة:

«يُواجِه طفل القرن الحادي والعشرين جملةً مِن التحديات والمواقف على كافة الأصعدة، منها مواقف تعليمية واجتماعية ونفسية وذهنية تتطلب منه أنْ يسلك سلوكًا يتميز بالقيادة للآخرين تارةً، وبالاستقلالية تارةً أخرى، وبالجُرأة وتحمُّل المسئولية واتخاذ القرار تارةً، لذا فإنه يجب على خبراء التربية والتعليم من الاهتمام بوضع المناهج المُحَفِّزَة لتنمية بعض المهارات الذاتية لدى الطفل والتي تؤهله إلى مواجهة كافة المواقف التي يتعرض لها أثناء طفولته».

ونضيف على هذه الفقرة عبارة مهمة بعد عبارة الدكتورة رحاب، «أثناء طفولته»؛ حيث نضيف عليها «وفي مستقبله»؛ حيث إنَّه – مبدأيًّا – ينبغي الوضع في الاعتبار، أنَّ تربية الأطفال، وتخطيط الأنشطة الخاصة بهم؛ ينبغي أنْ يكونَ في ذهنية واضعها، والمربِّين في المدرسة، وأولياء الأمور في البيوت، تستهدف المستقبل بالأساس؛ حيث لا ينبغي قصر التفكير عند وضع أنشطة تنمية المهارات بشتى صورها، كيفية تعامُل الطفل مع واقعه، وإنَّما تربيته أيضًا لمستقبله.

وهو الأهم؛ حيث إنَّه في المستقبل سوف يُواجِهَ، تحديات جسام، وأعقدَ وأهمَّ مما يُواجِه في طفولته، وسوف يواجهها مِن دونِ دِرعِ الحماية القوي الممَثَّل في الوالدَيْن والأسرة.

وتشمل الأنشطة التي يجب توجيهها للأطفال في مراحل الطفولة المبكرة والمُتأخِّرة، وفي مرحلة المراهقة، طائفةً واسعةً مِن الأنشطة، سواء لجهة محتواها أو مستهدفاتها، والتي ينبغي أنْ تكونَ مَرِنَةً بحيث تراعي خصوصية واعتبارات كل مرحلةٍ مِن هذه المراحل الفرعية.

فعلى مستوى المهارات؛ فإنَّه ينبغي الموازنة في الأنشطة المُختارَة بين تطوير المهارات الذهنية والحركية، وما يتعلق بتعضيد السلوكيات الإيجابية لدى الطفل والمراهِق، والقضاء على السلوكيات السلبية، أو تقليصها قدر الإمكان، وتعزيز هويته الدينية والاجتماعية، وتوضيح رؤيته لنفسه ولدوره في هذه الحياة.

كما ينبغي التنويع في الأنشطة بحيث لا يملُّ الطفل أو المراهِق؛ فتحسين نوعية معينة من المهارات، ينبغي أنْ يتمَّ بأكثرِ مِن نشاطٍ.

كذلك يجب أنْ يكون النشاط جذَّابًا وملائمًا لبيئة الطفل؛ فليس من السليم مثلاً اختيار أنشطة مثل الهرولة وقيادة الدرَّاجات في البيئات الأكثر فقرًا، والتي لا تتوافر فيها الثقافة اللازمة لفهم مثل هذه النوعية من الأنشطة، أو البيئة المناسبة لممارستها، مثل الشوارع المُمَهَّدَة.

وفي هذا، تقول الكثير من الدراسات التربوية، إنَّه مِن أهمَّ ما ينبغي أنْ يتوافر في الأنشطة المُخَطَّطة جيدًا للطفل والمراهِق، هي تلك النابعة من بيئته بالفعل، سواء لجهة تعريفه بها، وبمفرداتها، أو لجهة تعزيز قدرته على التفاعل مع هذه المفردات.

فهنا مثلاً يكون من بين الأنشطة ما يتضمن الخضروات والفواكه، والطيور والحيوانات التي تكون مِن حوله، ولا يُشتَرَط أنْ يتمَّ ذلك من خلال نماذج حية أو حقيقية، فيمكن أنْ يتم تعريفه بها من خلال الألعاب والنماذج الخشبية والبلاستيكية، وإنْ كان مِن المهم أنْ يكون هناك تفاعلٌ حيٌّ بينه وبين هذه المفردات على أرض الواقع.

ومن بين الأنشطة الجاذبة أيضًا، الأنشطة المرتبطة بالفنون الهادفة؛ حيث إنَّها ترتقي بالإنسان، وتعمل على تهذيب سلوكه، وجعله أكثر قابلية للاندماج والمشاركة الإيجابية، ومنها الرسم وفنون التمثيل المختلفة التي تتم من خلال أدوات ملائمة للطفل، مثل مسرح العرائس.

وبشكلٍ عامٍّ؛ فإنَّه على القائمين على النشاط، سواء المُعَلِّم أو المُعَلِّمَة في المدرسة، أو الوالدَيْن في البيت، أو المُرَبِّي في الأماكن الأخرى التي يرتادها الطفل والمراهِق، القيام ببعض الواجبات الأساسية عند تخطيط الأنشطة، ومنها.

- تحديد الهدف من النشاط.

- تحديد محتوى النشاط، والمفاهيم والقيم والاتجاهات التي سوف يتضمنها.

- تحديد بيئة التعلم بما يتلاءم مع طبيعة كل نشاط؛ فناء المدرسة أو المنزل، أو الشارع، أو من خلال المكتبة والأماكن المغلقة.. إلخ، وإعداد المكان/ البيئة إعدادًا بالصورة الملائمة.

- تحديد الوسائل والأدوات المُساعِدة المُستَخدَمة في تنفيذ النشاط بالشكل الذي يُحقِّق المستهدَفات، ويشمل ذلك تحديد السياسة المُستَخدَمَة في التنفيذ؛ الحوار والمناقشة، أو التدريب العملي.. إلخ.

ويتضمن العمل السليم في هذا الصدد، تدوين مخطط النشاط بالكامل قبل التنفيذ، وتقويمه من خلال أكثر من أداةٍ، ومن بينها مناقشة الطفل أو المراهِق فيما تم من أنشطةٍ، سواء لجهة كفاءة الأداء، أو لجهة الاستفادة.

....

وبشكل عامٍّ؛ فإنَّه ينبغي على الآباء في البيوت، والمربِّين في المدرسة والمنتديات، أنْ يكونوا على أكبر قدرٍ من الوعي بمثل هذه الأمور، والاطلاع على أحدث مبتكرات العِلم في هذا المجال، ومراعاة تطوُّر الظروف الاجتماعية والوسائط المختلفة المحيطة بنا في هذا العصر.

..*

تقويم سلوك الطفل و»أخطائه».. عملية خاضعة لإعادة النظر!

مِن بين الأمور المهمة التي ناقشناها في مواضع سابقة من الحديث، ضرورة توافر المعارف الأساسية في مجالات علم النفس والسلوك والتربية بشكلٍ عامٍّ، عند الآباء والأُمَّهات، في ظل التعقيد الذي صارت عليه ظروف الحياة الإنسانيَّة.

ومن بين أبرز نتائج غياب هذه المعرفة الضرورية عن أولياء الأمور، عدم قدرة أو سوء توصيف وفهم الآباء والأُمَّهات لكثير من المشكلات الموجودة لدى الأطفال.

وبالتالي؛ ينجمُ عن ذلك تفاقُم هذه المشكلات، وفي بعض الأحيان، خلق مشكلاتٍ جديدةٍ تستمر مع الأطفال، وقد تتحوَّل إلى نكوصاتٍ نفسية تلازمهم طيلة أعمارهم فيما بعد.

ومِن بين أبرز المشكلات الحاصلة في طرائق تقويم سلوك الأطفال، هو تقييم أولياء الأمور لبعض ما يأتي به الأطفال مِن مسالكٍ وأمورٍ.

فكثيرٌ من الآباء والأُمَّهات، يعملون على رصد وتقييم ما يأتي به الطفل من سلوكٍ أو أفعالٍ، وحتى مجالات اهتمام بطريقة خاطئة تستند إلى ما ينظرون إليه هم أنفسهم على أنَّه «خطأ»، وفق منظورهم الشخصي للأمور، ووفق ما تربَّوا ونشأوا عليه مِن قيم وأفكارٍ، ومِن دون فهم نقطة مهمة في هذا الصدد، وهي أثر التطوُّر الحاصل في الحياة الإنسانية بشكلٍ عام، في مختلف الاتجاهات.

فكثيرًا ما يكون التقييم خاطئًا لسلوكٍ ما بسبب أفكارٍ ومعتقدات لدى الأبِ أو الأم، تعود إلى التقاليد والأعراف، ولكن السلوك ذاته من الطفل ليس بالخطأ، سواء من وجهة النظر الأخلاقية الصِّرِفَة أو مِن وجهة نظر الدين.

وهنا من الضروري أنْ نقولَ إنَّ هذا التطوُّر ليس المقصود به فحسب النواحي المتعلقة بجانب واحد من جوانب حياتنا الإنسانية، مثل دخول الوسائط الرقمية على خط الوسائل المعرفية والتربوية، وإنَّما التطوُّر الأكبر يكمن في تطوُّر صور الحياة الاجتماعية ومساقاتها، وتعقيد التفاعلات فيها.

وبالتالي؛ فإنَّ هناك «عادات وتقاليد» و»أعراف» جديدة تتشكَّل من الأصل، لتحُل محلَّ نلك القديمة؛ حيث ينبغي الوضع في الاعتبار أنَّ العادات والتقاليد والأعراف التي يتبعها البعض، ليست أزلية، وإنما هي بدورها كان لها نقطة بِدءٍ قَضَت فيها، أو استُبْدِلَتْ بأخرى أقدمَ منها.

وهنا يدخل دور توصيف المُكوِّن الثقافي والمعرفي الطبيعي وفق مقتضى العصر وتطوراته. ففي الماضي؛ كانت المعارف الجنسية «تابوهات» محرَّمة، ولا يجوز الاقتراب منها، وبالتالي، كان لَمس وجود مدركات مُعيَّنة لدى الطفل حولها، يستحق العقاب، بينما الآن؛ هذه الأمور متاحة للجميع، حتى لو لم يسعى إليها الطفل.

وبالتالي؛ فإنَّ وجود بعض هذه المُدركات لدى الطفل في وقتنا الراهن، قد لا يكون أمرًا يستوجب العقاب، في ظلِّ حتى اختلاف النظرة إلى أهمية توافر المعلومات المهمة لدى النشء حول هذه الأمور، بما لا يتجاوز صحيح الأخلاق، أي أنْ تكون في الاتجاه الصحيح الذي يفهم معه الطفل هويته كوَلَدٍ أو كفتاةٍ، وكيف يمكن أنْ يتفاعلَ بشكلٍ سويٍّ فيما بعض مع التغييرات التي تطرأ عليه بحسب نوعه.

الخطأ الأكبر الذي يقع فيه الآباء في هذا الإطار كذلك، هو مُعاقبة الطفل لمجرَّد أنَّه خالف وجهات نظرهم وتعليماتهم لمجرَّد الإحساس بالسلطة الأبوية عليه، والتَّمسُّك بما يُمكن أنْ نطلِقَ عليه مسمى «الاستبداد الأبوي» أو «الاستبداد الأسري»، مِن دون نظرةٍ موضوعية لهذا الفعل الذي أتاه الطفل.

أي أنَّ الخطأ هنا هو مجرَّد مخالفة ليس تعليمات الأبِ أو الأُمِّ، وإنَّما هو مخالفة وجهة نظر الأبِ أو الأُمِّ؛ تحكُّمًا فقط، وهذا يخالف قواعد التربية السليمة بالمطلق، وينشئ الطفل معقَّدًا، وربما يؤثر ذلك على استوائه النفسي طوال عمره.

وقد تُثار حيرة الآباء والأُمَّهات في هذا الصدد، في ظل حالة السيولة التي نحياها في كل المجالات، وطالت حتى الأخلاق.

هنا ينبغي أنْ يكونَ لدينا فهمٌ حقيقيٌّ لمقاييس لا خِلافَ عليها في هذا الصدد؛ لكي لا نُصابَ بالحيرة.

المقياس الأول، هو الدين. ما الذي يخبرنا به الدين في صدد هذا السلوك أو الفِعل، وهو مبدأ عام ينبغي لنا كمسلمين أنْ نتبنَّاه، وفي عموم حياتنا، وليس في هذه القضية فحسب.

ويزيد من أهمية هذا المقياس، أنْ رسالةَ الإسلام، هي بالأساس رسالةٌ أخلاقية. يقول الرسولُ الكريم «صلَّى اللهُ عليه وسلَّم»: «إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ (صالحَ) الأخلاق» [أخرجه أحمد في المُسْنَدِ من حديثِ أبي هُرَيْرَة].

وعن ابن عباس (رَضيَ اللهُ عنهما) قال: «لما بَلغَ أبا ذر مبعثُ النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال لأخيه: اركَبْ إلى هذا الوادي، فاعلَم لي علمَ هذا الرجل الذي يزعم أنَّه

نبيٌّ يأتيه الخبر مِن السماء، واسمع مِن قوله ثم ائتني، فانطلق الأخ حتى قدِمَهُ وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر، فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق» [أخرجه البخاري].

والإسلام في هذا – كما تعاليمه في كل اتجاهٍ ومجالٍ – شاملٌ، فنجد فيه، في القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة؛ حديثًا وسيرةً، الوصف الدقيق لكل السلوكيات والأخلاقيات الواجب أنْ تكون لدينا أو ينبغي لنا أنْ نتفاداها، حتى فيما يتعلق بالمعارف الجنسية، وحتى ما يخصُّ منها دقائق الأمور، مثل استئذان الطفل على أبوَيْه وما إلى ذلك.

المقياس الثاني، هو المقياس العلمي البحت. فهناك في علم النفس والسلوك الخاصة بالأطفال والنشء، مقاييس دقيقة لما هو سوي/ غير سوي من سلوك لدى الأطفال، وما ينبغي/ لا ينبغي أنْ يتوافرَ لديهم من معارف ومفاهيم، وجداول دقيقة لهذه المعارف والمفاهيم بحسب المرحلة السِّنِّيَّة التي يمرُّون بها.

وهنا تظهر نسبية الخطأ، فما هو خطأ في السادسة مِن العُمر، لا يكون كذلك في السادسة عشرة، بل قد تكون هناك معارف لا ينبغي للطفل السعي إلى الاطلاع عليها، ثم يصبح مِن الضروري الاطلاع عليها في سنٍّ لاحقة، بالذات في مرحلة المراهقة والبلوغ؛ حيث من الضروري إفهام الطفل ما يطرأ عليه من متغيِّرات.

......

وفي حقيقة الأمر؛ فإنَّ هذا الباب من النقاش واسع، وما سبق؛ إنَّما هو رؤوس موضوعات وتنويهات لما ينبغي أنْ يقومَ الأبُ والأُمُّ بتعميق اطِّلاعهم عليه وكسبَه مِن معارق في هذا الاتجاه، وتبقى نقطة مصادقة الطِّفل وكسب ثقته هي من أهمِّ الأدوات المعاوِنة في هذا الأمر، وفي غيره من مسارات التربية الصحيحة.

..*

جماعة الأقران وأهميتها في تنشئة الأطفال.. ماذا قالت عنها مايكروسوفت؟!

تشهد البلدان المتقدمة في المجال الاجتماعي والتربوي الكثير من التطورات في آليات تربية وتنشئة الأطفال.

ومن بين أهم التصورات التي وصلت إليها بعض هذه البلدان، وأهمها فنلندا والسويد، والدول الإسكندنافية بشكل عام، والتي تحتل المراكز الأولى على مستوى العالم في مؤشر جودة التعليم وتطوُّره؛ التعليم المنزلي «**Homeschooling**»، والتربية المنزلية.

وهذه الآلية ليست اختراعًا أو ابتكارًا حديثًا للدرجة التي يتصوَّرها الكثير من عوام الناس وغير المتخصصين؛ حيث إنَّها تُعتبر وسيلةً قديمةً كانت سائدة في أوروبا قبل ظهور منظومات التعليم بصورتها الحديثة، التي تعتمد مفاهيم وآليات، مثل الإلزامية في المواظبة على الحضور المدرسي، أو المناهج المُوحَّدة.

وكانت طبقة الصفوة والنبلاء بالأساس، هم الذين يتبنُّون هذه المنظومة، من أجل تنشئة أطفالهم بصورة تتناسب مع مركز آبائهم والأُسر والعائلات التي ينحدرون منها، والتي كانت إما أُسرًا وعائلاتٍ إقطاعية أو حاكمة، وتعليمهم تعليمًا أفضل من ذلك الذي يتلقاه أبناء العوام.

بل إنَّ جذور هذه الطريقة في التعليم والتنشئة، تعود وفق الكثير من السجلات والكتب التاريخية، إلى عهود ما قبل الميلاد؛ في الحضارات التي سادت أوروبا قديماً، مثل الحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية.

وبمقتضى الحداثة، وحتى التقليد، فإنَّ هذا النمط من التربية والتنشئة، عَرف طريقه إلى «مجتمعاتنا» العربية والمسلمة، سواء بمفهوم بلداننا العربية والمسلمة، أَو بمفهوم مجموعات المهاجرين والأقليات العربية والمسلمة في البلدان الغربية والتي تُطبِّق هذه المفاهيم في التربية والتعليم.

وبالرغم من الجاذبية التي يحتويها هذا النموذج من التربية، إلا أنَّ السنوات الأخيرة شهدت ارتَكاساتٍ عليه في الدول التي بدأت تطبيقه، في ظل كونها تعتمد آليات الإدارة الحديثة، والتي على رأسها المراجعة المُعمَّقة والمُستَمرَّة لأيَّة سياسات تتبناها الحكومات، أو حتى المجتمعات، وإعادة توجيهها بما يضمن تعظيم المنافع وتقليل الآثار السلبية.

ومن بين أهم الاعتراضات التي ظهرت على هذا النمط من التربية للأطفال والناشئة، نقطة الانعزالية التي يرسِّخُها لديه، بكل ما لذلك من آثارٍ نفسية وسلوكية ومعرفية، مثل الانطوائية، وتعزيز سلوك التعالي على الآخرين من خلال تعظيم إحساس الطفل بالاختلاف والفَرَادَة، بالإضافة إلى فقدان الفوائد التي يحصِّلُها الطفل من خلال التفاعل مع الآخرين، وبالذات في نقطة الخبرات والمعارف، بجانب التَّعرُّف على البيئة المحيطة.

ومن بين أبرز المسارات التي تواجه مثل هذه النوعية من الآثار، جماعات الأقران «**Peer groups**»، أو جماعات الرفاق «**Comrades groups**»، التي تُعرَّف على أنَّها

جماعة تتكوَّن من عنصرَيْن أو أكثر تتطابق أو تتشابه عقائدهم وأفكارهم وشعور الفرد وإدراكه بأنه يُشبه الآخرين والشعور بالنوع.

ويقول الدكتور عبد القادر الشريف عن هذا النمط من أنماط التفاعل والعلاقات الاجتماعية:

«إذا كانت الأسرة ودور الحضانة ووسائل الإعلام تلعب دورًا مهمًّا في تنشئة الطفل، فإن جماعة الأقران لها أثرها في النمو الاجتماعي بصفة عامة، ومِن حيث تأثيرها في التنشئة الاجتماعية في مرحلة الطفولة بصفة خاصة».

ويضيف أنَّ جماعة الأقران أو جماعة الرفاق تتكون مِن أعضاء يمكن أن يتعامل كلٌّ منهم مع الآخر على أساس ما يصفه بـ«المساومة»، ويقول إن هذا الشكل من أشكال الاجتماع البشري «لها خاصية الضم والاحتواء؛ فهي تضمُّ الأطفال مِن نفس السن تقريبًا، وأحيانا من نفس الجنس، وتتعامل معهم على أساس المكانة المتساوية، كما أن لها خاصية استبعاد الراشدين من ناحية أخرى، ومن أمثلة تلك الجماعات، جماعة اللعب، والأقارب، وزملاء المدرسة» [التربية الاجتماعية والدينية في رياض الأطفال، ص ص ١١٣:١١٥].

وتذكر مُدوَّنة نشرتها أكاديمية مايكروسوفت، أنَّ جماعة الأقران تلعب عشرة أدوار أساسية في حياة الطفل، وهي:

١. المساهمة في نمو شخصية الطفل؛ إذ توفِّر الجو الاجتماعي الذي يزوده بالأنماط والقيم السلوكية للجماعة.

٢. تكوين جانبًا مهمًّا من الاتجاهات والأدوار والقيم الاجتماعية للطفل.

٣. دفع الطفل إلى تعديل الكثير من القيم والمعايير والسلوكيات التي اكتسبها من أسرته.

٤. منح الفرصة للطفل في التعامل مع أفراد متساويين ومتشابهين معه (كفريق كرة القدم) وبذلك يكون هناك أنماطٌ مِن العلاقات والتعاملات المتساوية الأمر الذي لا تتيحه له الأسرة.

٥. مساعدة الطفل في الوصول إلى مستويات الاستقلال الشخصي عن أفراد أسرته.

٦. السماح للطفل بتعديل انحرافاته السلوكية من خلال تأثيراتها الأقوى أحيانًا من أي مساقٍ اجتماعي آخر.

٧. مساعدة الطفل على الانتقال إلى مرحلة المدرسة؛ حيث في المنزل، تكون رعاية الآباء للأبناء متسلطة، وفي المدرسة يكون سلوكه مُقيَّدًا بواسطة المعلمين والمديرين، ولكن في جماعة الرفاق؛ فإن كل طفل يستطيع أنْ يؤكِّد ذاته بطريقة ربما لا تكون متاحة في أي مكان آخر.

٨. من ذلك، أنَّ جماعة الرفاق تسمح للطفل القيام بأدوار اجتماعية جديدة مثل القيادة.

٩. تكوين معايير اجتماعية جيدة وتنمية حساسية وعقليته النقدية الطفل نحو بعض المعايير.

١٠. إشباع الحاجات النفسية والاجتماعية الأهم لدى للطفل، مثل الحاجة إلى التقدير، والحاجة إلى الاطمئنان والأمان النفسي.

وهو ما عبَّر عنه الشريف بالقول إنَّ جماعة الرفاق «تساعد الطفل على ممارسة الأدوار الاجتماعية وتنمية حساسية الطفل نحو القيم، فتعمل على تكوين اتجاهات الأطفال، وتساعد على الوقوف على معالم البيئة كي تقوم بزيارتها».

ويضيف أنَّها «تعمل على عقد العلاقات الاجتماعية الطيبة بين الأطفال ومشرفيهم وبين الأطفال والبعض، كما تعمل على تنمية فرص الاعتماد على النفس والترويح عن نفس الطفل وتجديد نشاطه، الأمر الذي يؤدي إلى اكتشاف ميوله» [مصدر سابق]

ولكن بطبيعة الحال؛ فإنَّ هذا النمط من المساقات الاجتماعية، ككل أمور الدنيا في واقع الأمر، بحاجة إلى ضوابط بحيث لا يأخذ أفقًا سلبيًّا في تأثيراته على الأطفال.

ومن بين هذه الضوابط، والتي تتناسب مع هويتنا العربية والإسلامية، تعويد الطفل على أداء ما يتصل بهويته كعربيٍّ ومسلمٍ مع رفاقه، مثل العبادات، لاسيما الصلاة وقراءة القرآن الكريم.

كذلك من المهم التأكيد عليه من جانب الأسرة في المنزل/ المُعَلِّم في المدرسة، على قضية الهوية، ولاسيما ما يتعلَّق منها بأنَّه لكل ثقافة طابعها الخاص الذي يميزها، وبالتالي؛ تعويده على أهم قواعد السلوك في المجتمع الأمر الذي يجعل الطفل ملتزمًا بالعادات والتقاليد المقبولة مجتمعيًّا [انظر: سهير كامل أحمد في: التوجيه والإرشاد النفسي، مركز الإسكندرية للكتاب (٢٠٠٢)، وعبد الفتاح أحمد آل الريِّس في: «الانضباط الذاتي لطلاب المدارس ودور المدرسة والأسرة في تحقيقه»، كنوز المعرفة، جدة (٢٠٠٢)]

.....

وبشكل عام ينصح الكثير من التربويين وعلماء الاجتماع، بأنْ يكون دور الأسرة حاضرًا وليس غائبًا لصالح دور جماعات الأقران، ولكن مع الموازنة بين كلا الدورَيْن، بحيث تتحقق المصالح المرتبطة بكلِّ دورٍ منها، ويقلل كلٌّ منهما من الآثار السلبية للآخر، بحيث ينشأ الطفل سويَّ النفسِ والسلوك، ويرتبط بمختلف المساقات التي يكتسب منها المهارات والمعارف والخبرات اللازمة لتطوره المستقبلي.

..*

صديق وكاتم أسرار ومعاملة نِدِّيَّة..
كيف تجعل طفلك يُحبُّكَ ويُطِيعُكَ؟!

يعاني الكثير مِن الآباء والأُمَّهات مِن عديدِ المشكلات مع أطفالهم، ومن بين أبرز هذه المشكلات، العناد وعدم الطاعة، وكذلك عدم القدرة على تنشئة الطفل بشكلٍ سليمٍ، يخرج من إطاره سويًّا مُنتِجًا ومتفاعلاً مع حياته ومتطلباتها، ومع مجتمعه.

وجذر هذه المشكلات، هو عدم فهم أو معرفة أولياء الأمور للطرائق الصحيحة لتربية الطفل والتعامُل معه بشكلٍ عامٍّ.

وفي هذا الإطار؛ فإنَّ هناك عددًا من الأمور الأساسية التي ينبغي على كُلِّ أَبٍ وأُمٍّ أنْ يُدرِكاها في هذا الصدد.

وأول هذه الأمور، هو أنْ يفهما – الأبِ والأُمُّ – طبيعة الوظيفة التربوية للعقاب؛ حيث إنَّ الهدف منه ليس الإضرار بالطفل، أو معاقبته على خطأٍ في حدِّ ذاته، وإنَّما الهدف الأصلي من العقاب، هو إشعار الطفل بأنَّه قد ارتكب خطأً ويجب عليه عدم تكراره.

وهذا رُبَّما أوضح عند مربِّي الحيوانات المنزلية الأليفة؛ حيث إنَّ معاقبة الكلب أو القطة عندما يرتكب خطأً، وبالذات البول أو التبرُّز في غير المكان المُخصَّص لذلك؛ لا يكون تعبيرًا من صاحبه عن الغضب منه، وإنَّما لإفهامه أنَّ هذا الفِعل خطأ، ودليل

صحة ذلك، أنَّ المتخصصين في هذا المجال ينصحون هواة اقتناء الحيوانات الأليفة، بأنْ يكون العقاب على الخطأ، فوريًّا؛ حتى يدرِك الحيوان بالضبط ما هو الخطأ الذي فعله، فيتفاداه فيما بعد.

وبالتالي؛ فإنَّ العقاب المادي، الضرب بالتحديد، أو المعنوي، الإهانة، ليس وسيلةً سويَّةً أو مطلوبة في التعامل مع الأطفال، ويكون تطبيقها بشكلٍ مُبالَغ فيه له عواقب وخيمة على علاقة الأبِ أو الأُمِّ بالابن، وعلى نفسية الابن؛ حيث ينشأ إنسانًا غير سَوِيٍّ.

ولكن، كيف – إذًا – يمكن تقويم سلوك الطفل؟!.. بكل تأكيد العقاب مطلوب، ولكن مفهوم العقاب نفسه، متعدد الأبعاد، وواسع.

فلو أنَّ الطفلَ أحبَّ والدَيْه؛ فإنَّ أسوأ ألوان العقاب التي يمكن أنْ يتعرَّض لها، وتكون ذات تأثيرٍ وفاعلية عليه؛ هو أنْ يشعره الأبُ أو الأُمُّ بأنَّه أو بأنَّها قد تضايقت منه، أو أصابها الحزن مما فعل. وقتها لن يكرِّر الخطأ مهما كانت جاذبيته له.

وبشكل ما؛ فإنَّ التربية على أسس تحسين العلاقة بين الآباء والأُمَّهات وبين الأطفال، هي مِن أنسب طرائق تربية وتنشئة الطفل، وأنْ يكبُرَ سويًّا، بل وأنجحها.

ومن بين أبرز وسائل ذلك، هو إشعار الطفل بما يقوم به الأبُ والأُمُّ لأجله، وما يبذلانه من جهدٍ وتضحياتٍ من أجل تربيته، ومن تلبية احتياجاته.

وهنا بعض الأدوات التي قد تبدو بسيطة أو لطيفة الطابع، بينما هي على أكبر قدر من الأهمية، مثل أنْ يعرف الطفل أنَّ «بابا يتعب من أجل أنْ يشتري له الألعاب الجميلة»، وأنَّ «لولا ماما؛ لكان طفلاً قبيحًا غير نظيف، وغير مُهَندَّم».

يأتي بعد ذلك، نقطة مهمة لا يدركها غالب الآباء والأُمَّهات، وهي أنَّ الأفضل للطفل في المعاملة، أنْ تتمَّ معاملته معاملة الكِبَار؛ لا أنْ يتمَّ إشعاره بأنَّه طفلٌ، كما لا يجب أنْ يتمَّ التعامل مع طفل التابلت وعصر التقنية والرقميات، بطريقة الحديث المعسول الساذج المبالَغ فيه، والذي يتجاوز حقيقة أنَّ هذا الطفل، في هذه السِّنِّ، يعرف أكثر مما كُنَّا نعرفه ونحن في مثل عمره.

ومن ذلك، إشعار الطفل بعنصر المسؤولية، بحيث يتم – تدريجيًّا، ووفق قدراته البدنية والنفسية بحسب المرحلة السِّنِّيَّة التي هو فيها – نقل بعض المهام المتعلِّقة برعايته إليه، مثل ترتيب غرفته أو الاستحمام أو الذهاب إلى المدرسة أو النادي، وغير ذلك مِن المهام التي يرى الأبُ والأُمُّ يفعلانها معه. هنا سوف يشعُر بأنَّه رجلٌ حقيقي/ أو فتاة حقيقية.

يتضمن ذلك، تعزيز روح المشاركة والتعاون لدى الطفل، فهو – حينئذٍ – سوف يشعر بأنَّه بالفعل، شخصٌ مسؤول وموضع تقدير الآخرين، وهو ما يحقق أرقى عناصر سُلَّم ماسلو للاحتياجات الإنسانية، وهي الحصول على تقدير الآخرين، وتحقيق الذات والإحساس باحترام الآخرين ونفسه له.

ثم يبدأ الأبُ والأُمُّ في اتِّخاذ أبنائهم كأصدقاء لهم، وأصفياء لهم، ولو تمَّ ذلك بنجاح؛ فإنَّهما سوف يقضيان على مشكلة كبيرة تُعاني منها الكثير من الأُسَر، وهي أنْ يكون للطفل أو الطفلة أسرارٌ لا يعلما عنها شيئًا، وقد تكون أشياء ضارة للغاية بالابن أو الابنة، أو أن يتعرض الطفل أو الطفلة لمشكلة، ويخفيها أو تخفيها عن الأبِ والأُمِّ؛ خوفًا من العقاب، أو فقدانًا للثقة فيهما أو عدم الظن في فاعليَّة قدرتهما على معالجة الأمر!!

وبالتالي؛ فإنَّ إقناع الطفل بأهمِّيَّة الدور الذي يلعبه الأبُ والأُمُّ في حياته، وكسب ثقته؛ كلها أمورٌ لها أعمق الأثر عليه إيجابًا في هذه الجزئية.

ولعلَّ هنا خطأٌ يقع فيه الكثير من الآباء والأُمَّهات، وهو تصوُّر أنَّ الوفاء بالاحتياجات المادية للطفل، هي ما يجعله سعيدًا وآمنًا، فيقضون الكثير من الوقت في العمل انشغالاً عن الأطفال. هذا التصوُّر خاطئٌ تمامًا، بل قد يأتي بنتائج عكسية فيما يتعلق بعلاقة الأبناء بهم.

فككُلِّ شيءٍ؛ ينبغي تحقيق التوازن، وفي هذه النقطة؛ فإنَّه من الضروري الموازنة في إشباع الاحتياجات النفسية والمادية للطفل؛ لا الوقوف على إحداها فقط.

ولا يجب التعلُّل بالأزمات المعيشية لتبرير ترك الطفل وعدم الاهتمام به؛ حيث إنَّ ذلك يُعزِّز لديه الشعور بالدونية، وبأنَّه «ليس مهمًّا» أو ليس أولويةً في حياة الأبوَيْن، ويخلق هذا عنده الكثير مِن المشكلات في التواصل مع الوالدَيْن، أو أحدهما، وبالتالي؛ لا يكون على الدرجة الكافية من الكفاءة المطلوبة في نقطة طاعة الأوامر والتوجيهات أو ما شابه.

.....

وفي الأخير؛ فإنَّه مِن الأهمية بمكان في هذا الموضِع، إعادة التأكيد على ضرورة أنْ يدرِكَ الأبوان أهمية الإلمام بالمعارف الأساسية المهمة في مجال علم النفس والسلوك لدى الأطفال، وكيفية التعامل معهم في مراحل الطفولة والمراهقة المختلفة، من أجل تحقيق أكبر قدرٍ من الكفاءة والفاعلية في عملية التربية.

..*

كيف غيَّرت الكورونا طريقة تفكيرنا في تأهيل الأطفال

مع واسع انتشاره، وخطره الظاهر على الحياة الإنسانية، وعدم وجود أي لقاح أو علاج مُؤكَّد له حتى الآن؛ كان لوباء «كوفيد- ١٩» عظيم الأثر على مختلف صورِ النشاطات البشرية، ووصلت آثاره إلى كل أرجاء المجتمعات الإنسانية، بما في ذلك حتى أركان بيوتنا ودواخلها.

وبعيدًا عن السياقات السياسية والاقتصادية ذات الصياغات العامة التي تأتينا في التقارير الإعلامية والرسمية الحكومية، وفي الدراسات الأكاديمية، فإنه ومن بين المجالات المهمة المتخصصة المتعلقة التي تنزل إلى مستوى الاهتمام بالحالة الإنسانية الواحدة، هي الأمور المتعلقة بكيفية تعامُل الإنسان بالمعنى الشخصي أو الذاتي مع الظروف التي قاد إليها انتشار فيروس كورونا المستجد.

ويشمل ذلك طائفةً واسعةً من الأمور، مثل الهوايات، وكيفية قضاء الإنسان لأوقات فراغه، والتعامل النفسي والسلوكي الصحيح مع ظروف العزلة، وتدبير شؤونه المالية والحياتية بشكل عام.

وتزداد أهمية وجود تصور علمي واضح وسليم لتنظيم هذه الأمور في حالة التعامل مع الأطفال؛ حيث هي الفئة الأكثر حساسية وتأثُّرًا على المستوى النفسي والبدني لظروف من هذا النوع.

وفي هذا الإطار، وجدنا خلال الأشهر الطويلة الماضية التي مرَّت ثقيلة على المجتمعات الإنسانية، منظومة جديدة من الأفكار والترتيبات للتعامل مع ظروف الوباء بالنسبة لهذه الفئة، سواء في دور التعليم، حضانات ومدارس، أو داخل المنزل في الإطار الأسري.

ومن بين أهم الترتيبات فيما يتعلق بالعملية التعليمية، التعليم عن بُعد الذي تم اعتماده بديلاً رسميًّا عن الذهاب إلى المدرسة في كثير من دول العالم، أما فيما يتعلق بنقطة المكوث في المنزل؛ فقد تزايد الاهتمام بأنشطة تنمية المهارات.

يغلق ذلك دائرة نقاش حول شأنٍ مهمٍّ للغاية شغل بال علماء النفس والتربويين والمهتمين بالشأن المجتمعي، وشرائح واسعة من أولياء الأمور في مجتمعات العالم المختلفة، ولاسيما المجتمعات المُتقدِّمة التي تتمتَّع بمنظومة قوية ومتطورة من أنساق التربية والتعليم والفهم المجتمعي والتأهيل عند فئة الآباء والأمهات على وجه الخصوص.

هذا الشأن يتعلق بالتحولات الكبيرة التي أدَّت إليها التقنية الرقمية في عصر ثورة المعلومات والاتصالات، على النشء، سواء فيما يتعلق بمداركه وقدراته الذهنية، أو ما يتصل باهتماماته، وأثر ذلك كله على أولوياته وأفكاره وسلوكه.

وهنا مثَّلت قضية انخراط الأطفال والنشء الجديد في التعامل مع وسائل التقنية الحديثة، مثل الحواسيب الآلية والهواتف الذكية وأجهزة «التابلت»، وإعطائهم مساحات واسعة من اهتماماتهم للألعاب الإلكترونية، وقضاء وقتٍ أكبر على شبكة الإنترنت؛ مثَّلت أولوية مهمة في هذا المجال.

ودقق التربويون وعلماء النفس والمهتمِّين بشكل عام، بنقطتَيْن رئيسيَّتَيْن في هذا الصدد، الأولى، هي مدى تأثير ذلك على نفسيات وسلوكيات الأطفال كما تقدَّم، ونوعية المواد التي يطالعونها على الإنترنت، وهل تلك التأثيرات جميعها تسير في الاتجاه الإيجابي أم السلبي.

فمثلاً؛ هل قادت الألعاب الإلكترونية إلى تحسين قدرات الأطفال الذهنية، وتنمِّي مواهبهم وقدراتهم، أم إلى زيادة نزوعهم إلى العنف والعزلة عن محيط الأسرة والأقران، وهل المواد التي يطالعونها على الإنترنت، مفيدة لهم معرفيًّا، وتحسِّن من ثقافتهم، مما يبدد بعض الحزن على تراجع قيمة المحتوى المطبوع لديهم، أم أنها أشياء ترفيهية بلا قيمة أو تنحدر بذائقتهم وتمس الأخلاق.

وقبل الكورونا، بدأت الكثير من المجتمعات الغربية في التوجُّه إلى البحث عن أدوات جديدة لسحب الأطفال والناشئة من الفضاء الرقمي مجددًا إلى آفاق قد تبدو للبعض أكثر تقليدية من أدوات التأهيل الفكري والمفاهيمي وتنمية المهارات والقدرات.

وهذا ليس بالأمر المُستَغرَب؛ حيث قد يرى البعض أنَّه من الغريب حقًّا أنْ تعمَد هذه المجتمعات التي هي ذاتها التي ابتكرَت وقدَّمت للعالم هذه المخترعات، ولكنَّه من علائم تقدُّمِها، أنَّهم يعمدون دائماً إلى تقييم آثار كل شيء، ورصد أية تحولات، ودعم الإيجابي منها، ومحاصرة السلبي.

وبالتالي؛ فهم عَمِدوا، بعد ظهور الكثير من الظواهر السلبية، مثل تزايُد حالات انتحار الأطفال والمراهقين، أو ارتكابهم لجرائم قتل تأثُّرًا بما يرونه ويعايشونه في المجال الافتراضي، إلى الرصد والتحليل للآثار، وتوجيه السلطات التربوية سواء

بالمعنى الرسمي، أو بالمعنى الذي يخص الأسرة، أي أولياء الأمور إلى ما ينبغيه ذلك الحال.

ساهمت ظروف الوباء في تعضيد هذا الاتجاه، وبدأنا نرى الآن في كثير من المجتمعات، عودةً إلى عصر ما قبل الهواتف الذكية و»التابلت» بالنسبة للأطفال، وكانت القيود على الذهاب إلى المدارس والحضانات والأندية التعليمية، فرصة مهمة لذلك؛ حيث باتت الألعاب التعليمية التقليدية، مثل ألعاب التكوين الخشبية والكرتونية، وألعاب التركيب البلاستيكية المعروفة باسم «الليجو»، وألعاب «الميكانو» التركيب المختلفة الأشكال والمصنوعة من مواد متنوعة، مثل المعادن أو البلاستيك، من أبرز المشاهد القديمة التي عادت إلى الظهور في الأشهر الأخيرة.

ونرى أنَّ شركة صناعة مكعَّبات «الليجو» الشهيرة في الولايات المتحدة، قد أصدرت تقارير عديدة مفيدة في هذا الاتجاه؛ حيث إنَّها – أولاً – ذكرتْ أنَّ هناك حالة من الوعي بأهمية مثل هذه الأشياء، وبالتالي فهي بدأت في استعادة الكثير من منتجاتها القديمة التي كانت قد اختفت، وبالذات العبوات التي تحتوي قِطَعًا صغيرة من نوعية كانت قد فقدت زبائنها القدامى، والنزول إلى الأسواق بمنتجات جديدة من حيث النوعية، مثل الأشكال سابقة التجهيز، كالبيوت ومحطات البنزين والروبوتات.

هذه النوعية من المنتجات بشكل عام، تتجاوز كونها ألعابًا ترفيهية؛ حيث إنها من الأهمية بمكان في تطوير القدرات الذهنية للطفل، وتنمية مهارات الابتكار لديه، والقيام بالعمليات الرياضية الأكثر تعقيدًا.

بل إنها مفيدة في الجانب الطبي، سواء النفسي أو البدني؛ حيث إنها مجالاً مهمًّا للتنفيس المفيد عن بعض الضغوط لدى الطفل بسبب العزلة مثلاً، وافتقاده لجماعات

الأقران، ومعالجة بعض أنواع الإعاقات الذهنية والبدنية، وبالذات إعاقات الأيدي؛ حيث إنَّ استخدام هذه الألعاب بالذات الألعاب التي يتم فيها استعمال أدوات للفك والتركيب، من أهم ما يمكن لتمرين أعصاب الأيدي والأصابع.

وهذه الأساليب غير المباشرة للعلاج مهمة جدًّا في جعل الطفل أكثر تقبُّلاً للعلاجات، لأنَّ الطرق التقليدِية التي تُشعِره بأنَّه مجرد طفل مريض، تكون مكروهةً منه، كما أنها تكون أكثر إرهاقًا بالنسبة له.

ونفس المنطق ينطبق على عملية التعلُّم؛ حيث ثبُتَ علميًّا، أنَّ استخدام الأساليب المُسَلِّية في تعليم الأطفال، وتلقينهم المعارف والمهارات المختلفة مُغَلَّفة بغُلاف مسلٍّ براق، أجدى في تأثيره من وسائل التعليم والتلقين التقليدية، التي تجعل من عملية التعلُّم، مهمَّةً ثقيلة الوطء على الأطفال، بينما يُقبل بحماسةٍ على الألعاب التعليمية. تمامًا مثلما نجد الأطفال يحفظون أغاني الأطفال المُسَلِّية بشكلٍ أفضل من قدرتهم على حفظ المحفوظات والأناشيد الموجودة في كتاب المدرسة.

.....

وفي الأخير؛ فإنَّ ظروف وباء «كوفيد- ١٩»، وتعضيدها لخيار التعليم عن بُعد، من بين النواحي الإيجابية التي أتاحها الوباء – لكل شيءٍ وجهَيْن؛ إيجابي وسلبي – لكي نعمل على تحسين عملية تأهيل الأطفال والنشء الجديد.

..*

لا تتعجَّل نُضجَ طفلك!

خلق اللهُ تعالى كلَّ شيءٍ بقَدَر، و»القَدَر» هنا مثلها مثل كثير من مصطلحات وألفاظ القرآن الكريم، هي كلمةٌ حمَّالة أوجهٍ ومعانٍ عديدةٍ كما شاءت حكمة العزيز الحكيم.

ومن بين معاني «القَدَر» هنا، أنَّ كلَّ شيء مخلوقٍ بوزنٍ وحجم مُقَدَّرَيْن، وبالتالي، فإنَّ كلَّ شيءٍ مخلوقٌ لِكَي يتحرَّك بضوابط، وفق قدْره المحدود الذي خلقه اللهُ تعالى عليه، وفي ظل سيادة قانون النُّدرة، قريب الصلة في فهمه في هذا الموضع، بمفهوم النُّدرة المعروف في الموارد الاقتصادية.

ومن هذه المعاني أيضًا، أنَّ كلَّ شيءٍ خلقه اللهُ تعالى، خَلَق معه سياقاته ومصيره، ضمن ركن الإيمان المتعلق بالقضاءِ والقَدَر.

وكلا المعنيَيْن شاءت حكمة الخالق عز وجل البالغة أنْ يكونا؛ حيث يؤكدان – كما كل قوانينه تبارك وتعالى في واقع الأمر – أسماءه الحسنى وصفات الجلال والعظمة والكمال التي يتصف بها، مثل أنه هو الكامل، وما دونه ناقص، وأنَّه هو القيُّوم على شؤون الخلق، والمتحكِّم المتصرِّف في كل شيء في ملكوته، الذي وَسِعَ كلَّ شيء مخلوق، مما نعلم ومما لا نعلم.

ومن بين الآيات التي جاءت تؤكد المعنى الأول لكلمة «القَدَر»، أي القَدْر، بمعنى المقدار، المحدود، قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴾ [سُورَة «الرَّعد»]، وقوله عز وجل: ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴾ [سُورَة «الحِجْر»]، وقوله سبحانه أيضًا: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ [سُورَة «المؤمنون»].

وفي حقيقة الأمر؛ فإنَّ المعاني الموجودة في هذه الآيات، تثبت عظمة هذا الدين، وهذا الكتاب، وبحاجة إلى مواضع عدة للحديث؛ حيث فيها كَمٌّ كبير من الحقائق والقوانين الأساسية التي تضمنتها علوم شديدة التخصص والحداثة، مثل الاقتصاد، كقانون محدودية الموارد، ومثل علم الجغرافيا، كقانون تبدُّل أحوال المناخ في المكان الواحد بين وقتٍ وآخر.

ولهذا – مثل كل شيء علَّمنا اللهُ تعالى إياه – فإنَّ هذه القوانين والمعاني، لها أكثر من مجال تنساح فيه حكمته من مجالات حياتنا، الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وكذلك – بالتبعية – المجالات التربوية.

وفي الحقيقة، أن المجالات التربوية، هي من أهم المجالات التي يسيطر عليها قانون القَدَر الذي وضعه اللهُ تعالى فينا بالمعنى الأول، الذي يتضمن ضمن ما يتضمنه من معانٍ، أنَّ كلَّ شيءٍ له محطاته ومراحل تطوره، ومحدودية قدرة الإنسان بطبيعة تكوينه فيه.

فنرى العلماء يقسِّمون حياة الإنسان منذ الميلاد، إلى مراحل، وكل مرحلة منها، يجدون لها سماتها الجثمانية والعصبية والنفسية، بحسب حال خِلْقَة الإنسان وقدراته فيها.

وكما كل قوانين اللهِ في خَلْقِه، كربٍّ لهذا الكون، فإننا لا يمكننا بحالٍ أنْ نتجاوزَها، لأنها الثوابت المطلقة غير القابلة للتبديل، التي شاءت قدرة اللهِ وحكمته أنْ تضبط إيقاع وتوازن الخَلْق والكون إلى أن يشاء اللهُ تعالى، وتنتهي الحياة الدنيا، ولم يتركها للإنسان، لعلمه بنقصه وعدم تمام عقله، وبالتالي؛ فإنَّنا لو حاولنا تجاوز هذه القوانين، سوف نقع في خانة الفشل لا محالة.

ومن بين المجالات التي يمكن أن نطبِّق هذا الحديث فيها، على المستوى التربوي، خطأ جسيم يقع فيه الآباء والأمهات بحُسن نية، وهو فرض أمورٍ تفوق سِن الطفل عليه، بحُجَّة أو تطلُّعًا لأن يكبُر مبكِّرًا، خاصة في حالة الأطفال الذكور، سعيًا لـ«أن يصبح رجلاً» قبل الأوان، وفق تصورات غير سليمة عن تعويد الأبناء على تحمُّل المسؤولية، والقيام بواجبات الكبار.

فمن بين القوانين التي يخالفها هذا السلوك، قانون الاستطاعة الذي نَصَّ عليه القرآن الكريم أيضًا في سُورَة «البقرة»: ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ٢٨٦** ﴾.

وقانون الاستطاعة، هو أحد القوانين المُنبنية على أساس قاعدة محدودية طاقة وخَلْق كل مخلوق؛ حيث إنه بما أننا مخلوقات ناقصة، محدودة القدرة؛ فإنَّه بالتالي، لاستطاعتنا حدود.

وحتى في المجال التربوي القريب؛ فإن فطام الطفل، مُحدَّد له بعمرِ عامين كما جاء في القرآن الكريم، لأنَّ خلق الإنسان قبل هذه السِّنِّ، مثل تكوين فمه ومعدته وسائر

جهازه الهضمي والدوري؛ من المحدودية والضعف، بحيث لا يمكن معه تحمُّل الطعام الصلب، ويمكنه فقط تحمُّل تناول الطعام السائل أو اللين الطري.

وهنا يقع الأب والأم في خطأ مفاهيمي، عندما يقارنون أطفالهم بأطفال بعض السِّيَر في الماضي، عندما كانوا يقودون جيوشًا أو يقومون بمعالي الأمور، وبالذات في التاريخ الإسلامي الأول.

الخطأ هنا في عدم مراعاة أمرَيْن. الأول، هو الفروق الفردية، والثاني، هو تبدُّل الظرف واختلاف البيئة، وكلا العاملَيْن لا يمكن بناء إستراتيجية تربية عامة يتشابه فيها كل الأطفال، في كل المجتمعات؛ حيث الاستثناء لا يُقرُّ كقاعدةٍ.

وهذا حتى أمرٌ بديهي ومعترف به في المجال الطبي؛ حيث إنَّ سِنَّ البلوغ لدى الفتيان والفتيات يختلف من مجتمع لآخر، وكذلك فروق النمو بين الجنسَيْن، ذكرانًا وإناثًا، بحسب البيئة ونوعية الغذاء فيها، وغير ذلك من العوامل المؤثرة.

وبالتالي؛ فإنَّ الصحيح، هو التعامل مع الطفل بموجب كل مرحلة من مراحل طفولته؛ حيث الطفولة المبكرة تختلف عن الطفولة المتأخرة في استجاباتها وفي متطلبات التربية والتعامل فيها.

وعلى العكس؛ أثبتت الدراسات العلمية الحديثة، في المجالات النفسية والفسيولوجية، أن إجبار الطفل على القيام بما لا يطيقه، قد يقود إما إلى فشلٍ نفسي، مثل الميل إلى العزلة، وكراهية العالم المحيط به، بما في ذلك الأب والأم، وعدم التفاعل الإيجابي مع الأحداث من حوله.

بل قد يقود ذلك إلى إعاقة ذهنية، أو حتى بدنية؛ إذ أنَّ الضغط المبالَغ فيه من دون حسابٍ للأثر، قد يقود إلى حالةٍ من العجز الدائم في يدٍ أو ساقٍ أو أي عضوٍ من

أعضائه، التي قد تكون من الهشاشة غير المُقدَّرة من جانب الأب والأم، أو المُرَبِّي في المدرسة، فيقود الضغط المادي عليها، إلى تعويقها.

وهذا بطبيعة الحال، يطبع بطبعه وأثره السلبي الفادح على مستقبله بالكامل.

ومن بين أسوأ الأخطاء في هذا المجال، مُعايرة الطفل بـ«عجزه» مقارنة مع بعض نظرائه في محيط الأقران والجيران والأقارب، أو زملاء المدرسة، الذين قد يكونوا هم الفائقين وهو ذو قدرات عادية، وليس بعاجزٍ، في صورة من صور تجاهل قانون الفروق الفردية كما أشرنا.

ومن بين صور ذلك أيضًا، تجاهل مواهب الطفل في مجالٍ ما، أو ميوله في اتجاه ما، وإجباره على الخوض في مجال قد لا يكون: يحبه/ لا يتفق مع قدراته البدنية.. إلخ، وهنا تبرز خطورة فرض خيار بعينه في مجال الرياضة البدنية عليه لمجرَّد حب الظهور والتفوُّق؛ حيث إن هذا المجال هو أحد أهم أسباب الإعاقة بالمعنى المباشِر بجانب العقد النفسية التي تنشأ من حرمان الطفل مما يحبه، وإجباره على ما لا يحب لَاعتبارات اجتماعية تخص الأب والأم، ولا تعنيه هو.

فقد يكون الطفل حتى من محبِّي رياضة معينة، ولكن قدراته الجسمية لا تصل به سوى إلى مستوىً معينٍ فيها، بينما يريد الأب أو الأم أو المدرِّب، أن يراه قد وصل إلى مرتبة أعلى مما لا يتناسب مع قدراته، فيُصاب بإعاقة ما إذا ما واظب على التدريب الشاق المُبالَغ.

ولكن، ولكي لا نُصاب بالشطط أو الجمود، فإنَّ ذلك، لا يمنع مِن السعي المستمر إلى تنمية مهارات الطفل بشكل عام، أو تعليمه موهبة جديدة، أو صقل موهبته التي

يحبها، ودفعه إلى التفوق فيها، ولكن شريطة أنْ يتم ذلك بالقواعد العلمية السليمة التي تراعي ضوابط القدرة والاستطاعة لديه على المستويَيْن النفسي والبدني.

ويمكن في هذا، المزج بين أدوات الترغيب المختلفة، بعيدًا عن طرائق الترهيب والمعايرة والسخرية منه بـ»عجزه» في مجال ما، أو التسفيه مما يحب هو أن يقوم به، مثل ربط ما يريد الأب أو الأم تعليمه إياه، والتفوق فيه، بدرجة رضائهم عنه، وبحبهم له، بحيث يُقبِل هو على ذلك لأن «بابا الذي يحبه» أو «ماما التي يحبها وتحبه» يريد/ تريد ذلك منه.

وهي طريقة مُثلى حتى لمعالجة مشكلة مزمنة لدى كل الآباء والأمهات والمربِّين، وهي دفع الطفل لأنْ يحب المدرسة ومذاكرة دروسه.

.....

وبالتالي؛ فإنَّ التعامل مع الطفل، بحاجة إلى علم وذكاء أكثر مما هو بحاجة إلى ممارسة الأب أو الأم في البيت، أو المربِّي في المدرسة لسلطته على الطفل.

..*

ماذا تعني التربية المستقبلية لأبنائنا؟!

نقف كُلَّ يوم في عصرنا الحالي على تطورات كثيرة متلاحقة، تشمل مختلف مجالات العمل الإنساني؛ العلوم والتقنية الحديثة، والسياسة والاقتصاد والاجتماع، والفنون والآداب.

والتربية ليست بدعًا من هذه التطورات التي ساهم العلم الحديث وعصر الثورة الرقمية التي نعيشها في تسريع وتيرتها، مثل أي مجالٍ آخر.

وفي الواقع؛ فإنَّ التربية هي واحدةٌ من المجالات التي كانت الأكثر تأثُّرًا مِن غيرها من مجالات النشاط الإنساني بالتطور الكبير الحاصل في الوسائط الرقمية، سواء لجهة تأثير هذه الوسائط على المستوى الأخلاقي والسلوكي للنشء الجديد، أو فيما يتعلق بطرائق وأساليب التعليم والتربية بالمعنى القريب.

في الإطار الثاني، شهدت الوسائل التعليمية الكثير من النهضة بفعل التطورات التي أتى بها عصر الرقميات، وبات من المعتاد أنْ نسمع عن وجود أدوات من العصر الرقمي، مثل «التابلت»، تُستخدَم في العملية التعليمية والتربوية في المدارس حتى في البلدان الأقل تطوُّرًا، سواء بديلاً عن الكتاب، أو كوسيلة لأداء الاختبارات.

بل إنَّنا في ظل ظروف وباء «كوفيد-١٩»، رأينا كيف أنَّ الكثير من دول العالم الثالث، ومن بينها بلداننا العربية، بدأت في تفعيل آليات التعليم عن بُعد من خلال

الإنترنت ووسائط الاتصال وحفظ البيانات الحديثة، للموائمة بين اعتبارات ضرورة أنْ تسير الحياة والنشاطات البشرية المختلفة، ومن بينها قطاع التعليم، بوتيرتها المعتادة، وبين اعتبارات منع فيروس «كورونا المستجد» من الانتشار- ومحاصرته في مختلف أماكن التجمُّعات البشرية.

إلا أنَّنا، وبفحص مُدَقَّق في طرائق التعليم والتربية بشكل عام في مجتمعاتنا العربية؛ فإنَّنا نقف أمام تصورات لا تزال تقليدية مع توظيف التقنية الحديثة.

فبدلاً من الورقة والقلم والكتاب الورقي؛ فإنَّ التلقين والحفظ والاستظهار، يتم بواسطة الرقميات، ولا يتم الاهتمام بجذر منطق أو جوهر ثورة المعلومات والاتصالات وما تصبو إليه في صدد تطوير طرائق التفكير والحياة الإنسانية نحو أفقٍ الغد.

وهذه الإشكالية نابعة من مشكلة أكبر، مفاهيمية بشكل عام في طرائق تفكيرنا وتصوراتنا للأمور، وهي الوقوف عند اللحظة، فنحن نجدها في مختلف المجالات، بما فيها التنمية.

فمثلاً من بين أهم الأزمات القائمة في كثير من بلداننا العربية هو أنَّ تخطيط مشروعات المرافق، مثل مياه الشرب والصرف الصحي والكهرباء، كان يتم التخطيط لها وفق احتياجات الحاضر، بينما الصواب هو أنْ يتم التخطيط لها بناءً على رؤية مستقبلية لما سوف يكون عليه عدد السكان والتوسُّع العمراني.

وهذا ما نجد عكسه في المجتمعات المتطورة في المجال العلمي، والتي أحرزت تقدُّمًا في المجالات الحضارية المختلفة، مثل النظم الاجتماعية والسياسية والتشريعية وغيرها.

ففي بلدٍ صناعيٍّ متقدِّم مثل الولايات المتحدة، يمكننا أنْ نجد سدودًا ومحطات كهرباء صار لها مائة عام، لأنَّها تم تصميمها وتنفيذها وفق نظرة مستقبلية على الاحتياجات، بينما في عالمنا العربي؛ غالب هذه المنشآت حديثة، لأنَّه يتم الاستغناء عن القديم كل فترة وإقامة غيرها يراعي الاحتياجات المُسْتَجَدَّة، بسبب أنَّ التخطيط لم يتم بناء على رؤية مستقبلية.

في هذا الإطار؛ فإنَّه بالتأمُّل في شاشات قنوات فضائية دولية في هذه الدول، مثل قناة «ألمانيا اليوم» (DW)، نقف أمام برامج شديدة التقدُّمية في نظرتها إلى ما ينبغي أنْ تكون عليه رسالة الإعلام – الذي هو أداة من أدوات التربية والتنشئة بالمعنى الشامل العام – في عصرنا الحالي، وهي أنْ يقودنا إلى الغد.

فنجد برامج على غرار «المستقبل الآن» و»العولمة ٣٠٠٠»، وعلى «ناشيونال جيوجرافيك»، نجد برامج بذات المنطق، مثل «العام مليون».

فهذه القنوات، والمنظومة التنفيذية التي تقف خلفها، والمنبثقة من طبيعة مجتمعها، تنطلق من الفهم الحقيقي لرسالة العلم، بكل اتجاهاتها؛ حيث إنَّ الهدف الحقيقي هو أنْ يقودنا التطور إلى الغد.

وبالنَّظر إلى ما يقدمونه من مواد؛ لا نجدهم يتكلمون في السياق النظري عن «نسبية المستقبل» أو قوانين الحركة لنيوتن وما قد يطرأ عليها من متغيِّرات، أو اختلافها في قطاعات أخرى من الكون الفسيح الذي نعيش فيه، ولكنهم يتكلمون في صُلب الحياة اليومية للإنسان ورفاهيته، ويمدُّون في ذلك خطًّا تطبيقيًّا مع عالم اليوم.

فنجد الكثير عن التطور المُنتَظَر في أساليب الزراعة أو بناء وتشييد المساكن، ثم نجدهم ينطلقون من تجارب تجري بالفعل، أو يُقدِّمون أفكارًا في المجال التطبيقي،

يمكن العمل عليها في زمننا هذا، أيْ أنَّ مفرداتها متوافرة بالفعل في عصرنا الحالي، بحيث لا يكون الحديث عبارة عن ضربٍ من ضروب الأحلام والخيال العلمي الرومانسي، ولكنَّه يُقدَّم في قالبٍ جادٍّ تطبيقيٍّ يعمل وفق منظور التقدُّم إلى الغد من خلال ما هو مُتاحٍ اليوم، وهو ما يعني بالضبط شعار «المستقبل الآن» الذي تطرحه «ألمانيا اليوم»..

وهذا المبدأ قائمٌ في مجالات العلوم المختلفة، وليس في العلوم المادية، أي التقنية، فحسب. فمثلاً، في العلوم السياسية؛ فإنَّه من المعروف أنَّ الهدف الأساسي بل والغاية الرئيسية لأيِّ نظامٍ سياسي، هو أنْ يضمن أنْ يكون الغد أكثر أمنًا ورفاهةً من اليوم، بالنسبة لِشَعْبِه.

فقضية المستقبليات هذه، حاكمةٌ لكل منظورات الأمور في البلدان المتقدمة، وفي مجال التربية والتعليم؛ فإنَّ ذلك يعني أنْ تقود تطورات العلم الحديث، الأجيال الجديدة إلى التفكير والعمل على تطوير ما ينبغي أنْ نجده في الغد.

ولا يقف هذا التصوُّر عند الأمور التي لها أهميتها الكبرى أو مركزية في أذهاننا، مثل علوم الفضاء والطيران والفلك وهذه الأشياء، وإنما تمتد حتى الأشياء الصغيرة البسيطة التي تفيدنا في حياتنا اليومية.

فمن المعتاد أنْ نجد في صفحات الأخبار ومنصات التواصل الاجتماعي الغربية أنَّ أحد النشء في سِنِّ المراهقة، أو طُلَّاب مدرسة من المدارس، قد استطاع/ أو استطاعوا ابتكار آلة تُسَهِّل من مهمة ربات البيوت في مجال النظافة، أو تُحسِّن من قدرة كبار السِّن على السير في الشوارع والصعود والنزول من على الأرصفة.

هذا هو المبدأ الأول لما ذكرناه في عنوان هذا الحديث؛ عن التربية المستقبلية لأبنائنا؛ أيْ أنْ نُعَلِّمَهُم ونُرَبِّيَهُم على أنَّ الأساس من العملية التعليمية والتربوية، وتطوير أفكارهم ومداركهم، هو ليس اللحظة الراهنة، بل المستقبل.

وهو أمرٌ من السهل إقناعهم به؛ حيث إنَّ رعاية الأطفال والناشئة إنَّما تهدف لتأسيس الجيل الذي سوف يكون هو القائد والأساس في خدمة المجتمع والوطن مستقبلاً، وبالتالي؛ فإنَّه من البديهي أنْ تكون تنشئتُهم مبنيَّةً على رؤية تراعي أنْ يكونوا عندما يتولُّون المسؤولية مستقبلاً، قد تأسَّسوا بشكلٍ ملائم لما سوف يكون عليه المستقبل وفق مرئيات الحاضر.

وهنا تبرز أهمية التأسيس في سنٍّ مبكرةٍ، مع عدم الجور على حقوق الطفولة في اللعب والانطلاق، وكذلك تبرز أهمية علوم المستقبليات والاستشراف، والتي باتت الآن هي من أهم مجالات البحث وأدوات النهضة في الغرب والدول المتقدمة.

..*

ماذا نقرأ لأطفالنا.. ماذا نقرأ لأنفسنا؟!

بدأت دورة معرض القاهرة الدولي للكتاب الحادية والخمسين، ومع كل موسم من مواسم المعرض الأكبر والأهم في العالم العربي والشرق الأوسط، تتداعى إلى الذهن العديد من التساؤلات لدى المهتمين والمثقفين بما سوف يسعى إلى الحصول عليه من أوعية المحتوى المختلفة، المقروءة والمرئية والمسموعة، المقدمة من جانب الناشرين في المعرض.

ويرافق المعرض هذا العام العديد من الفعاليات الثقافية الأخرى التي تفتح المجال واسعًا أمام كل الباحثين عن المعلومة والفكرة، قضية كيفية التخطيط للإنفاق على المحتوى بأنواعه المختلفة، وأهمها معارض سور الأزبكية بوسط العاصمة المصرية، وفي ضاحية المعادي، بسبب وجود صعوبات في مشاركة المكتبات المتخصصة في بيع الكتب القديمة والمستعملة في المعرض بعد نقله من مقره القديم في مدينة نصر، إلى القاهرة الجديدة.

في هذا الإطار، تظل القاهرة، ولمدة شهر، من منتصف يناير وحتى منتصف فبراير، مساحة واسعة لعرض مئات الآلاف من العناوين والكتب، بين قديم ومستعمل وجديد، وعدد مماثل من المحتوى الملائم للوسائط الإلكترونية.

وهذا «الازدحام» في المعروض، واتساع رقعة المناسبات، على طول وعرض القاهرة؛ تتفاقم مشكلة الاختيار، ولاسيما إذا ما كان الأمر مرتبطًا بحالة من عدم القدرة على توفير تمويل كافٍ للشراء، فيبدأ الإنسان بالتدقيق فيما سوف يقوم بشرائه.

في هذا الإطار، تطرح كل عام، وفي كل مناسبة مماثلة في عالمنا العربي والإسلامي، وحيث يعيش العرب والمسلمون في أي مكان من العالم، قضية عامة مهمة غير مرتبطة بالحدث، ولكن الحدث أو المناسبة يفتح النقاش بشكل أكثر عمقًا واتساعًا حولها، وهي قضية ماذا نقرأ، وماذا يقرأ أطفالنا وماذا نقرأ لهم.

وفي الحقيقة أنه أولاً؛ تختلف مسألة «ماذا يقرأ أطفالنا» هذه عن مسألة «ماذا نقرأ لهم»؛ حيث القراءة في الأساس برغم أنها فعلٌ تربوي وتثقيفي، وبالتالي فهو يدخل في إطار دور الأسرة والمدرسة ومختلف المحاضن التربوية، إلا أنها أيضًا فعلٌ حُر، وترك المجال حرًّا أمام الأطفال والأبناء في المراحل السِّنِّيَّة المبكرة، هو في حد ذاته فعلٌ تربوي.

ولكن هذه الحرية بطبيعة الحال، لا تكون مطلقة؛ حيث هناك منظومة من الضوابط لمتابعة الطفل والمراهق فيما يقرأ، حتى لا تحدث انفلاتات أخلاقية أو انحرافات فكرية أو عقدية، ولكن من دون إشعاره بأنه مُرَاقب أو غير موثوق فيه من جانب الأب أو الأم أو المربِّين.

وبالرغم من تباين الأولويات من فرد لآخر، بحسب نمط التفكير أو السن أو أي عاملٍ آخر، وتبدُّل هذه الأولويات من مجتمع إلى مجتمع؛ إلا أنه تبقى هناك أطرٌ عامة يمكن أن تقودنا إلى الإجابة عن هذه الأسئلة المهمة، لأن الثقافة والمعرفة، وفي القلب منها القراءة والاطلاع، هي مصدر القوة الأساسي، وصانعة الحضارات.

ولكن من نافل القول في البداية، التأكيد على أن تكون اتجاهاتنا في القراءات العامة، تخدم أهدافًا مركزية، مثل الجانب الأخلاقي والسلوكي، وزيادة المحتوى المعرفي وتوسيع المدارك، وتحسين مستوى الفهم والتنوير، كلٌّ بحسب سِنِّه سواء فيما

يخص الاطلاع، أو فيما يخص نوعية المحتوى، أي سواء أكان الوسيط كتبًا ورقية أو إلكترونية، أو كُتبًا مصوَّرة، أو اسطوانات رقمية، أو غير ذلك.

فمن المعروف أن القراءة، وبالذات في سنٍّ مبكِّرة، هي من أهم الأمور التي تساعد في تشكيل وتوسيع مدارك الإنسان، وفهمه للحياة من حوله.

ومن المهم أن نقول هنا هو أنه لا ينبغي أن تكون هناك تحيُّزات مسبقة في اختيار الوعاء الذي ننهل منه المعلومات والمعارف، فليس معنى أنني في العقد الرابع أو الخامس من العمر، أن أستنكِف عن مطالعة المحتوى المصوَّر، سواء أكان قصصًا أو محتوىً علميًّا.

واللافت هنا ويدعم وجهة النظر هذه، أن هناك الكثير من الأدباء ودور النشر، أصدروا «كوميكسات» في قضايا مهمة، وتخص الكبار، مثل إصدارات الهيئة المصرية العامة للكتاب ودار الشروق القاهرية في السنوات الأخيرة عن جمال حمدان وتشي جيفارا، أو حرب رمضان/ أكتوبر ١٩٧٣م، وغيرها من الرموز والأحداث السياسية والثقافية.

وبشكل عام؛ فإن قضية السن أو المؤهل التعليمي، لا ينبغي لها أن تحكمنا وتحكم اختياراتنا في هذا المجال.

أما لو أتينا إلى التخصيص ودقائق الأمور؛ فإننا كعربٍ ومسلمين، تفرض علينا المرحلة الراهنة منظومة من الأولويات، على رأسها كل مصدرٍ أو محتوى يمكن أن يساهم في تحديد هويتنا بصورة حقيقية، وترسيخ هذه الهوية في نفوس الصغار والنشء منذ البداية.

وأهمية هذه العملية في أننا، وبعد الاستقلال عن الاستعمار الأوروبي المباشر، باتت أنظمة التعليم في بلداننا العربية والمسلمة بعيدة في نقطة تكريس الهوية هذه، وخصوصًا في العقود الأخيرة التي شهدت الكثير من التردي والانحطاط في أداء الحكومات والأنظمة لواجباتها.

وبالتالي، فإن هناك ضرورة لإيلاء أهمية وأولوية لقضية الهوية فيما نقرأ، وحتى فيما نقوم به من مناشط بشكل عام في حياتنا، اليومية، وفي سياقاتها طويلة المدى.

ويشمل هذا الأمر تعريف الطفل والمراهق، ومراجعة حتى معلومات الكبار، عن دينهم؛ عقيدةً وعبادات ومعاملات، وكيفية بناء حياة كاملة وفق التصور الإسلامي للأمور.

ومن البديهي في هذا السياق، أن نبتعد فيما نقرأ ونطالع، عن المادة أو المحتوى الذي يدعم الغزو الثقافي والفكري، ويساند رسالة التغريب والعلمنة في مجتمعاتنا، وبالذات عند النشء الجديد.

ينقلنا هذا إلى نقطة مهمة، وهي ضرورة أن نكون في قراءاتنا على قدر من التركيز فيما يخص نقطة الاطلاع على واقع قضايا الأمة، سواء في الجانب المعرفي، أو في الجانب المتعلق بالتوجيه، أي ماذا نفعل وكيف نفعله إزاء هذه القضية أو تلك.

ولعل أبرز مجال أرى في الوقت الحالي أنه من الأهمية بمكان تدعيم القراءات فيه، بمختلف صنوف المحتوى، بحسب السن والمستوى التعليمي والفكري، هو الجانب التاريخي؛ حيث إن غبار السياسة وصراعات الأنظمة والجماعات المنتسبة إلى الدين، أصاب الكثير من الأمور في تاريخنا بغبشٍ ثخين، كان له أسوأ الأثر في نقطة هويتنا هذه.

كذلك يجب الاهتمام هنا بنقطة شديدة الأهمية، وهي توفير بنية معرفية تقود إلى تشكيل أخلاق وسلوك الأطفال والناشئة بالشكل الذي ينفي الاتهامات الموجهة إلى المشروع الإسلامي، والقرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، مثل تعزيز قيم التسامح وقبول الآخر، وقيم الحوار البيني وبشكل عام، ونبذ العنصرية والتطرف، وكل ما لحق بنا وبثقافتنا من شوائب في الفترات السابقة.

وبكل أسف؛ نشير في هذا الموضع من الحديث، إلى أن هناك بعض التقصير في مجال النشر من جانب الدور والهيئات الإسلامية، وبخاصة في مجال المادة المقدمة للطفل والناشئة، ولكن ذلك له الكثير من الأسباب، من بينها ما هو خارج عن إرادة دور النشر، مثل الأوضاع السياسية والأمنية القائمة في كثير من بلداننا العربية.

......

وفي الأخير؛ تبقى نصيحة على أكبر قدر من الأهمية، وهي ربما التي فيها لُب عنصر الأثر الإيجابي المطلوب في مختلف الاتجاهات، الأخلاقية والمعرفية.. إلخ، من القراءة والاطلاع، وهي ضرورة التدقيق في موضوعية وكفاءة المادة أو الوسيط المختار، وهو أمر يتطلب الكثير من الجهد في البحث قبل اتخاذ قرار الشراء.

وهنا تبرز قيمة الخبرة السابقة، والاستعانة بالمواقع الإلكترونية المتخصصة والبيبلوجرافيات الجامعية الموثوق فيها، وغير ذلك من المصادر التي يمكن الركون والاطمئنان إليها في هذا الصدد.

إذًا، المهمة ليست بالسهلة. فهل أنت مستعدٌ لها، لأجل تحقيق أكبر استفادة ممكنة من موسم وفرة الكتب والأسعار الجيدة؟!.. سؤال أنت فقط الذي تستطيع على الإجابة عليه!

..*

وسائل التعليم الحديثة وأزمةٌ تُواجه تعلُّم اللغة العربية

ما مِن شَكٍّ؛ فأنَّ اتِّباع التطور في شتى العلوم ومجالات التطوُّر الحضاري بشكلٍ عام، هو مِن سُنَنِ العمران التي وضعها اللهُ تعالى في خَلقِه، وليس أدلَّ على ذلك من انقراض الحيوانات والمخلوقات التي عجزت عن التطوُّر وموائمة الظروف المناخية المُستَجَدَّة، وفق قانون ربَّاني أصيلٍ، شاء الخالق سبحانه وتعالى أنْ يكون هو سبَبَهُ لاستمرارَ الدُّنيا حتى يشاء اللهُ، وينهيها.

ومن سِمَات الحضارات الأصيلة، هو ظاهرة الأواني المُستَطرقة في المكتشفات الجديدة؛ حيث تنساح تطبيقاتها في كل مجال تصلحُ له.

فعندما استطاع الإنسان السيطرة على النار، قام بتوجيهها إلى مجالات عِدَّة؛ طهو الطعام والتدفئة والأمن، وغير ذلك.

وهذه السُّنَّة أو السِّمَة؛ تنطبق على وسائل التقنية الحديثة؛ حيث نجد ألف تطبيق للمُبْتَكَر الواحد في المجالات الرقمية.

وبطبيعة الحال، كان أولى المبتكرات بذلك، الارتباط العضوي الذي تم بين وسائط الاتصالات والمعلومات الرقمية، وبين مجالات العلم والثقافة المختلفة.

فهذه المُبتَكَرَات، بمختلف صنوفها؛ وسائط التخزين، والهواتف المحمولة، والحواسيب النقَّالة، والإنترنت، وغيرها؛ تتصل في صُلْب عملها بأمرَيْن؛ حفظ

ونقل المعلومات، وتحسين الاتصال بين البشر، والأولى هي من أهم الأمور المرتبطة بالتحصيل العلمي والثقافي.

ولذلك كان مِن الطبيعي أنْ تقف أمام توسُّع كبير في تطبيق وتوظيف هذه التقنيات في مجالات التعليم وتنمية المهارات لدى الأطفال.

وبالفعل، حقَّقت التطبيقات المرتبطة بهذه التقنيات في تلك المجالات، نجاحات كبيرة، فيما تم توظيفها لأجله، مثل تحسين قدرات الأطفال الذهنية وتوسيع مداركهم، لاسيما مع ربط الأدوات الصُّلبة – الأجهزة – بالفضاء السايبراني، وانفتاح الناشئة والمراهقين على ثقافات المجتمعات الأخرى، وطرائق التعلُّم والتثقيف الذاتي فيها.

ولكن، وكما هو مرتبط بكل ما شيء في هذا الكون كما شاءت حكمة الخالق عزَّ وجلَّ؛ لم يخلُ الأمر مِن آثارٍ سلبيةٍ؛ حيث قادت هذه الوسائط في تطبيقاتها في مجال التعليم، إلى انبتات صلة الطفلِ والناشئة بالوسيط الورقي على أهميته وقيمته الكبرى في مجال التعليم وتنمية القدرات الذهنية والمعلوماتية للطفل.

وهذا القول بأهمية الوسيط الورقي؛ هو ليس مِن قبيل النوستالجيا أو الحنين إلى الماضي؛ حيث إنَّ هناك أصلاً علميًّا مهمًّا يجعل للوسيط الورقي في أيِّ مجالٍ من مجالات التعلُّم، مكانته التي لا يمكن بحالٍ الاستغناء عنها، حتى يبتكر العالم بديلاً لها في وظيفتها، وهي قدرة الوسيط الورقي على تثبيت المعلومة بشكل أفضل بكثير من الوسيط الإلكتروني، وتثبيت المعارف المختلفة عند المتلقِّي، طفلاً كان أم كبيرًا، سواء من خلال الكتابة أو من خلال القراءة.

وهي قدرة لن تجبُّها وسائط التقنية الحديثة مهما تطورت، حتى لو اخترع الإنسان شيئًا يقدر على أنْ يضع بنوك المعلومات والمعارِف المختلفة في الدماغ البشري مباشرةً؛

حيث إنَّه سوف يبقى للوسيط الورقي دوره في الكتابة، وهي مهارةٌ يكوِّنُها الإنسان منذ طفولته، وفيها الكثير مِن الأمور المتعلقة بوظائف جسم الإنسان، مثل التناسق بين حاسَّتَيْ البصر والحركة، والتناسق بينها وبين مراكز التفكير في الدماغ البشري.

وقد يقول قائلٌ؛ إنَّ العمل سوف يصل بكلِّ تأكيدٍ إلى مرحلة يقدِّم فيها مبتكرات رقمية، صُلبَة أو سايبرانية، أيضًا تعين في ذلك بدلاً من الوسيط الورقي، هنا نشير إلى نتائج أبحاث جَرَت في مجالَيْ علمَيْ النفس ووظائف الأعضاء تقول بأنَّ مهارات الإنسان المرتبطة بالكتابة على النحو الذي سبق وأنْ اختزلناه في الفقرة السابقة، لا تقف فحسب عند الكتابة؛ حيث هي – الكتابة – ناتج ضمن نواتج مهمة لاكتساب الجسم البشري، حواسَّ وأعضاء، لهذه المهارات، لا يمكن للإنسان الاستغناء عنها.

وللتوضيح؛ فقضية التنسيق الذي تشرف عليه الدماغ بين حواس الإنسان وأعضائه، وبين هذه الحواس والأعضاء وبين مراكز التفكير في مخ الإنسان، لا تقف فحسب عند مهارات القراءة والكتابة، وإنما تمتد إلى قدرته على المشي وتحريك يدَيْه ومهارات أخرى أساسية لا تغني عنها وسائط التقنية الحديثة بالمطلق؛ حيث هي من صميم حياة الإنسان، وكونه مخلوقًا حيًّا مفكِّرًا ومتحرِّكًا.

وبشكل منطقي أصولي؛ فإنَّه لا يمكن استبدالها بوسيط رقمي أو آلي صُلب، وإلا لما احتاج المخترعون إلى أنْ يقلدوها في الروبوتات؛ حيث إنَّ الكثير من علم وظائف الأعضاء وميكانيزمات حركة الإنسان والمخلوقات الحية الأخرى، هي التي يتم نقلها إلى مجال الآليات والروبوتات.

فالطائرات والسفن والغواصات، يتم عند تصميمها أو صناعتها، اقتباس الكثير من صفات ومهارات الكائنات الحية، وآليات تطبيقها لها وليس العكس.

وبالبداهة؛ فلو فقد الإنسان هذه المهارات أو ضمرت لديه؛ لن يكون قادرًا على الابتكار والإبداع؛ لأنَّ الأخيرَيْن بحاجة إلى جسدٍ وقدرات عقلية مكتملَيْن ومتناسقَيْن في الأداء، فلا يمكن أنْ تطلبَ من شخصٍ فاقد القدرة على الحركة، أن يقوم باختراع وتجربة روبوتٍ أو آلةٍ لتسلُّق الجبال.

وما قد يُقال هنا عن علماء كانوا غير مبصرين أو معاقين، مثل ستيفن هوكينج؛ حيث هُم طفراتٌ في قدراتهم، وهم استثناء لا يمكن بحالٍ تعميمه.

وفيما يتعلَّق بمجال اهتماماتنا في العالم العربي والإسلامي في هذا الصدد؛ تُعتبر اللغة العربية، الضحية الأساسية لمثل هذه الجوانب السلبية في مخترعاتنا الحديثة، وفي عمليات تطوير العملية التعليمية.

وهناك أكثر من جانبٍ لهذه المشكلة، فأولاً؛ تحوُّل الطفل والمراهِق من الوسيط الورقي أو المادي بشكلٍ عام، مثل الألعاب الخشبية في القراءة والكتابة؛ يقلِّص كثيرًا من قدرته على تعلُّمِها وفهمها.

وهو أمرٌ واضحٌ في الأجيال الحديثة أو «جيل التابلت» كما يُطلَق عليه؛ حيث اللغة بالأساس ممارسة، قراءةً وكتابةً.

وهذا الأمر لا يقف عند حدود نقطة القراءة والكتابة، بل يمتد ذلك إلى ثقافة الإنسان، لأنَّ عدم قدرته على التعامل مع اللغة بأساسياتها، يفقِد الإنسان القدرة على تذوُّق الآداب والفنون المختلفة، وتحصيل المعارف الضرورية لكي يكون مبدِعًا، أو حتى إنسانًا عاديًّا، قادرًا على تقديم الحد الأدنى من الإسهام في المجتمع المحيط به.

أضف إلى ذلك، أهمية اللغة والتعامل معها في الجانب الخاص بالقرآن الكريم، قراءةً وتدبُّرًا؛ فما لم يكن المسلم واعيًا بشكل سليمٍ للغة العربية؛ فلن يكون بمقدوره فهم كتاب اللهِ تعالى والعمل بتعاليمه.

ولعلنا لسنا مُبالغين في هذا الذي نقول؛ حيث في أكثر الدول تقدُّمًا في المجال العلمي، ويطبِّقون مفردات العلم الحديث ومبتكراته في مجال التعليم والتأهيل؛ لا يزالون يحتفظون بالأساليب القديمة التي تعتمد على الورقة والقلم والخشب والوسائط المادية الصُّلبة بشكل عام، في تعليم الأطفال والناشئة الأمور الأساسية، مثل اللغة والحساب.

وهو أمرٌ ينبغي أنْ ينتبه إليه معلِّمُونا ومربُّونا في مختلف المحاضن التعليمية والتربوية، بما في ذلك الأبِ والأُم في الأسرة.

..*

مفاهيم خاطئة عن الآلام النفسية.. كيف نتفادى آثارها القاتلة؟!

نعاني في حياتنا من الكثير من الأزمات والمشكلات التي يكون أهم أسباب تفاقُمها، هو أننا لا نفهم مُسَبِّباتها، ولا يكون لدينا إلمامٌ بطبيعتها الحقَّة وحجم آثارها.

وبشكل عام، فإنَّ أبرز المساحات التي يظهر فيها هذا الأمر في مجتمعاتنا العربية، والمجتمعات التي لا تتمتَّع بالكثير من صور التطوُّر في المجال الاجتماعي والثقافي، وتزداد فيها نسبة الأُمِّيَّة والجهل بمعناه الواسع، هي الأمراض النفسية.

وسلسلة الكوارث التي يتسبب فيها الجهل بحقيقة هذه الأمراض، وبمتطلبات التعامل الصحيح معها، لا تنتهي، بدءًا بالانحرافات الأخلاقية، وصولاً إلى جرائم السرقة والقتل، وحتى التطرف الفكري الذي يقود إلى العنف باسم الدين أو القيمة والأخلاق.

والمشكلة الأكثر شيوعًا في هذا الصدد، هي مشكلة الصورة الذهنية المِعْوَجَّة التي يرافقها الكثير من التشويش حول الأمراض النفسية، كـ«نقيصة» و«سُبَّة» في جبين صاحبتها وعائلته، وبالتالي، يتطلَّب الأمر إخفاءها، مع خلطٍ كبير بين الأمراض النفسية والعصبية والعقلية، وبين الذُّهان والعُصاب وغيرها من صور هذه النوعية من الأمراض، ووضعها في قالب واحد أو أسفل مسمًّى واحد، هو «الجنون».

وهذا في حقيقة الأمر، خلطٌ غير علميٍّ بالمرَّة؛ حيث الجنون اصطلاحًا، يعني غياب عقل الإنسان بشكل كامل، يفقِدَه التمييز، بينما في غالب الحال؛ فإن الأمراض النفسية

والعصبية، وحتى بعض صور الأمراض العقلية؛ يكون الإنسان قادرًا على التمييز بدرجات متفاوتة، ومقبولة.

ولكن، على أية حال؛ فإنَّ هذه النوعية من الأخطاء، معروفة، وهناك جهود من جانب أطباء ومنصَّات علمية كثيرة تعمل على تصحيحها، أمَّا الجانب المهم ولكنه لا يحظى بالقدر الكافي من الوعي والتوعية في آنٍ، هو الجانب الجسدي المتصل بهذه النوعية من الأمراض، وهو جانب من أخطر ما يكون، لأن الجهل به في بعض الأحيان، قد يقود إلى حالات وفاة، أو حتى قتل غير متعمَّد من جانب الناس لبعض أصحاب هذه الحالات.

ونعني بذلك بوضوح وبساطةٍ، هو الأسباب الجثمانية، والآثار البدنية للمرض النفسي أو العصبي أو العقلي.

فكثير من الناس، وخصوصًا ممَّن لا يتمتعون بالقدر الكافي من التعليم والثقافة، يجهلون أنَّ هناك عوارض وأسباب، وكذلك آثار مادية للمرض النفسي أو العصبي، وكذلك في حالة الأمراض العقلية.

فكثيرٌ من الناس المصابين بمثل هذه النوعية من الأمراض، تكون هذه الأمراض في حَدِّ ذاتها، عوارض لمشكلات بدنية، بالذات في المخ ومراكز الإحساس فيه، أو في ضغط الدم وتمثيل السُّكَّر والمعادن المهمة للجسم، مثل دورة مضخة الصوديوم/ البوتاسيوم التبادلية في الخلية أو ما شابه.

وحتى مصطلح «أمراض عصبية» بالذات؛ لا يرتبط فقط بالجوانب المعنوية في الإنسان، فهناك حالات صدمات عصبية «**Neurogenic shock**» – بالمعنى الحرفي للكلمة – تكون سبب حالات حروق شديدة أزالت الجلد وعرَّت أطراف الأعصاب

الحِسِّيَّة في جسم الإنسان، وبالتالي، قد يموت بسبب «صدمة عصبية» مادية أو «فسيولوجية» «**physiology**»، وليست نفسية «سيكولوجية» «**psychology**».

وفي هذا؛ فإنَّه كثيرًا مع نسمع عن حوادث عنف تصل إلى حد القتل أو الإيذاء البدني لآخرين، لأسباب عصبية بالمعنى المادي، الجسدي، بسبب أنَّ مُرتكبها كان يعاني مِن مشكلات نقص في السُّكَّر؛ حيث يتسبب نقص السُّكَّر لعوارض بدنية تقود إلى تبني الإنسان لسلوك عنيف مرغمًا.

والمشكلة الكبيرة لدى كثيرين في مثل هذه الحالات، في صدد التعامُل الصحيح معها، هو عدم وجود عارض أو سبب ظاهري على صاحبها، وبالتالي، يتم إهمالها، أو ممارسة ضغوط على صاحب الحالة باعتباره «يتظاهر» بالمرض، بينما هو يعاني أشد حالات الألم، وقد يموت لهذا السبب بالفعل.

ففي حالات كثيرة من الصدمة النفسية «**Trauma**»، يكون الإنسان يعاني من ضغوط على جهازه العصبي البدني، أو الفسيولوجي، ويكون أثر ذلك مماثلاً تمامًا كما لو تعرَّض لحريق قاد لتعرية أطراف الأعصاب الحِسِّيَّة كما تقدَّم.

لذلك، فإن علماء النفس يطلقون على «التروما» هذه مصطلحًا موفَّقًا للغاية في شرح هذه المسألة، وهو مصطلح «الكدمة النفسية»؛ حيث هي تشبه الكدمة التي تظهر نتيجة اصطدام عضو أو جزء من جسم الإنسان بجسم صُلب بسرعات عالية، ولها نفس التأثير ـ ولكن لا نراها، وما لا نراه عند العوام، هو في الغالب غير موجود.

ولذلك – وهو بالأمر المؤسف – نسمع عن حالات لأزمات قلبية أو تنفسية تقود إلى الوفاة، بسبب عدم إدراك طَرَفٍ ما أنَّ مَن أمامه يعاني مِن عوارض بدنية لأزمة نفسية مِن نوعٍ ما، مثلما يُقال عليها في مصر «كَرْشِة نَفَس».

وهذا الأمر على أكبر قدر من التخصص في المجال العلمي؛ حيث هناك علمٌ كامل يُطلَق عليه مسمَّى «علم النفس الفسيولوجي» «**Physiological psychology**»، وهو ذلك العلم الذي يدرس العلاقة بين سلوك وأعضاء جسم الإنسان، ومحاولة إيجاد تفسيرات فسيولوجية أو عضوية بالمعنى القريب، للسلوك الإنساني.

وباختصار، فإنَّه يجمع بين اختصاص علم النفس الذي يدرس الحالة النفسية للإنسان، بما في ذلك الأفكار والمشاعر والأحاسيس والميول والرغبات والذكريات والانفعالات، ويشمل ذلك، دراسة سلوك الإنسان، والنشاط الإنساني بشكل عام، مِن أقوال وأفعال وحركات ظاهرة، وبين علم وظائف الأعضاء، الفسيولوجي، الذي يدرس وظائف أعضاء الإنسان، والمخلوقات الحية بشكل عام.

و«علم النفس الفسيولوجي»، هو من أرقى ألوان علوم النفس والطب البدني معًا، وأحدثها كذلك؛ حيث – كما يقول الدكتور أحمد عكاشة في كتابه الذي يحمل نفس الاسم – يدرس الأساس الفسيولوجي والبيولوجي للظواهر النفسية المختلفة، بما في ذلك النواحي المتعلقة بالحواس والهرمونات، وكذلك الوظائف العليا للدماغ أو الجهاز العصبي المركزي، بما في ذلك الوجدان والتفكير والسلوك.

......

وفي حقيقة الأمر؛ فإنَّ ما سبق بطبيعة الحال، بحاجة إلى دراسات ومجلدات تتناسب مع تعقيد الظاهرة الإنسانية بشكل عام، ولكن من المهم إدراك الجوهر السابق لتفادي مشكلات اجتماعية، على المستويَيْن الفردي والجماعي، بعضها حتى سياسي كما في مشكلات الانحرافات الأخلاقية العامة، أو التطرف الفكري.

وبالتالي؛ فإنَّه ينبغي فهْم أنَّ هذا الأمر ليس أمرًا علميًّا بحتًا، أو تَرَفًا فكريًّا ومعرفيًّا، بل له ضرورات كثيرة في عصرنا الحالي، الذي تعقَّدت فيه الظواهر الاجتماعية، بل إنَّ له خصوصية مهمة في مجتمعاتنا العربية في الوقت الحالي، في ظل ما تشهده من أزمات اقتصادية وسياسية، وأعمال عنف وصلت إلى مستوى الحروب الأهلية وموجات نزوح داخلي وخارجي، شَمِلَتْ عشرات الملايين من الناس.

كل هذه الظروف، جعلت مجتمعاتنا بيئةً خصبة للغاية لمختلف الأمراض والإعاقات البدنية والنفسية، والمعقدة لجهة تداخلها وتشابكها مع بعضها البعض، مع عظيم الأثر على الإنسان.

وبالتالي؛ فإنَّ إدراك مثل هذه الأمور، والإلمام بها، من الأهمية بمكان حتى على مستوى الفرد العادي.

..*

الأصول العضوية للأزمات النفسية والمشكلات السلوكية لدى الأطفال

يُعاني الكثيرِ مِن الآباء والأمهات، من تعرُّض أبنائهم إلى أزمات نفسية، أو وجود مشكلات سلوكية مزمنةٍ لديهم.

وهذا الأمر طبيعي، في ظل طبيعة الحياة المعقدة التي نحياها، وفي ظل الكثير من المشكلات التي باتت تعترض دور الأسرة والمدرسة في تشكيل وضبط سلوك الأطفال.

إلا أنه ثمَّة مشكلات كبيرةٍ تعترض سُبُل الآباء والأمهات في التعاطي مع هذه الظواهر، أو تقودهم إلى اتجاهات خاطئة لتقويمها، ولاسيما في مجتمعاتنا العربية والمسلمة.

ومن بين أهم هذه المشكلات، ما يتعلق بالبيئة الاجتماعية في مجتمعاتنا؛ حيث هناك منظومة من الرؤى ذات الطابع التقليدي المحافِظ الحاكمة في النظر للأطفال، وكيفية التعامل معهم، وطبيعة أدوارهم المرحلية والمستقبلية.

هذه الرؤى تنطلق في كثيرٍ من جوانبها من طبيعة تغلب عليها القساوة، وعدم الالتفات إلى احتياجات الأطفال التقليدية، باعتبارها شكلاً من أشكال الترف والتدليل غير المرغوب فيهما، وبالذات مع الأطفال الذكور.

ويحضرنا في هذا الأمر، موقفٌ مرَّ به الرسول الكريم «صلَّى اللهُ عليه وسلَّم»، مع ذلك الأعرابي الذي رآه يقبِّلُ سَبْطَيْه الحسن والحسين (رضي اللهُ عنهما)، ويهشُّ في وجهيهما، فأخبره ذلك الأعرابي أنَّ له عشرة من الأبناء؛ ما قبَّل أحدهم أو ابتسم في وجهه قطّ.

حينه قال له النبي «عليه الصلاة والسلام»: «ارحموا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء» [أخرجه أبو داوود والترمذي].

كذلك تلعب الأحوال المعيشية والاقتصادية دورها في ذلك؛ حيث الطفل مورد رزق للأسرة، في ظل انتشار الفقر، فباتت عمالة الأطفال، ظاهرة من الظواهر المعتادة في مجتمعاتنا.

إلا أن هناك مشكلة نودُّ إلقاء الضوء عليها أكثر من غيرها في هذه الموضع من الحديث، وهي غياب النظرة الصحيحة لتوصيف بعض المشكلات ذات الطابع النفسي والسلوكي لدى الأطفال، والتي تعود إلى أصول عضوية؛ لا نفسية عند الطفل

وتتصل هذه المشكلة بغياب المفاهيم الأساسية للتربية وعلم النفس والاجتماع، عن المجال المعرفي ، وسبق أنْ تناولناها في موضع سابق من الحديث.

في غالب الحال، لا يلتفت أولياء الأمور – ربما في مرحلة متأخرة – إلى أن المشكلات التي يجدونها في أطفالهم، مثل فرط النشاط (الطفل الشَّقي بالمعنى الدارِج)، أو السلوك العدواني، أو الكآبة، أو مشكلات النطق، أو التبوُّل اللاإرادي، وغيرها من صور الانحرافات السلوكية والنفسية لدى الأطفال؛ لا يلتفتون إلى أنها قد تعود إلى أسباب عضوية.

وبالتالي؛ فإن الآباء والأمهات قد يلجئون إلى بعض أساليب التقويم غير الصحيحة لسلوك الطفل هذا، ومن أسوأها الضرب، وفي بيئاتنا ومجتمعاتنا؛ فإن أسوأ الصور الشائعة لذلك، هي الضرب على الوجه والرأس، بكل ما لذلك من تبعات سلبية سواء على المستوى النفسي أو على المستوى العضوي.

فالدراسات العلمية الحديثة أثبتت أن ضرب الطفل على وجهه، يؤدي إلى قتل الخلايا العصبية، وإحداث اضطرابات في الكلام، ومشكلات في العين، أما الضرب على الأذن، فقد يقول إلى ثقب في طبلة الأذن، وفقدان السمع، فيما أن الضرب على الرأس فقد يقود إلى خلل في وظائف المخ، وارتجاج في المخ، في ظل غياب حقيقة مهمة عن الآباء والأمهات، وهي أن أعضاء الطفل تكون في تلك المرحلة لا تزال هشة، وفي طور التكوين أصلاً.

وقد يجتهد بعض الآباء والأمهات في التعامل مع بعض الانحرافات السلوكية والنفسية، بعيدًا عن سياسة العقاب/ الضرب، ولكنهم لا يجدون نتيجةً، مما يدفعهم إلى اليأس، وإهمال البحث في الأسباب الحقيقية لذلك، والتي قد يكون من المهم اكتشافها مبكرًا للحفاظ على حياة الطفل ذاتها.

فهناك الكثير من الأمراض العضوية التي تقف خلف مثل هذه المشكلات، مثل زيادة النشاط الكهربي في الدماغ، أو سوء تمثيل جسم الطفل للعناصر الأيونية، مثل البوتاسيوم والصوديوم، أو مرض السكري، أو وجود أورام في المخ أو إصابات في الحبل الشوكي.

هناك يكون الطفل العدواني، ليس عدوانيًّا عن قصدٍ، أو الطفل الكسول؛ ليس كسولاً عن قصدٍ ومشاغبةٍ منه، أو عدم الاستجابة لتعليمات الأب أو الأم أو المعلِّم في

المدرسة، وإنما يكون بسبب وجود مشكلة عضوية لديه، يتحتم معالجتها للقضاء على مثل هذه الظواهر.

وبالتالي؛ فإن أهم ما يجب أن يحرص الآباء والأمهات عليه، هو إجراء الفحوص الطبية اللازمة على جسد الطفل، مثلما يحرص البعض على متابعة أخصائي تخاطب أو سلوك لحالة أطفالهم.

وهنا من المهم للأب والأم، معرفة كل ما يتعلق بالطفل، وتذكُّره دائمًا، بما في ذلك نشاطه خارج المنزل؛ حيث من الممكن أن يكون قد تعرض إلى حادث، وقد يبدو بسيطًا، ولا يعلم الأب أو الأم عنه شيئًا، أو قد لا يأخذونه على محمل الجد، بينما يكون قد ترك بصمةً كبيرةً على عضو من أعضاء الطفل، ولاسيما الدماغ، يؤدي إلى خلل سلوكي أو نفسي.

وفي ذلك، تقول الخبيرة النفسية ناديا فخري، إن الحوادث التي يمكن أن تقع للأطفال لا حصر لها، سواء أكانت في النطاق العائلي، أو في السياق المجتمعي الخارجي، أو في المدرسة.

وتشير إلى أن أثر الحوادث على نفسية الأطفال، لا يعتمد فقط على طبيعة الحادث، وإنما أيضًا على السن الذي يقع فيه، ومدى تكراره والظروف التي يقع فيها.

وبالتالي؛ فإن أهم ما ينبغي فعله، هو التقييم الجيد للحادث وتأثيراته، لا بالتقليل منه، أو بإعطائه أهمية تزيد عن الحد، ولكن ينبغي وضعه دائمًا في الحسبان.

وهذا الأمر، من أهم كذلك مهام المعلِّم والمعلِّمة في الفصل؛ حيث إنهم الأكثر قدرة على ملاحظة أسباب ما لدى الطفل من مشكلات نفسية أو سلوكية، وردَّها إلى أساسها العضوي إنْ وُجِد.

.....

.....

وفي الأخير؛ فإنه من الضروري العمل مع الطفل، وفق منظور شامل، لا يهمل أيَّ عامل من العوامل مهما كان، ولا يستسهل أسلوب العقاب/ الضرب، كأسلوب وحيد للتقييم؛ حيث قد يكون أحد أسباب تفاقم المشكلة لا علاجها.

..*

خاتمة:
كيف تستطيع أنْ تُغيِّرَ العالم؟!

بطبيعة الحال، تطرح القضايا والأزمات التي نعيشها، سواء على المستوى الفردي، أو مستوى مجتمعاتنا، وحتى مستوى الإنسانية كافة؛ الكثير من التحديات، وقد تقود الصور التي نراها من اتساع نطاق هذه المشكلات، وتعقيدها، إلى حالةٍ من اليأس لدى الإنسان العادي، بحيث يفضَ يده من كل شيء، ويقبع في بيته، أو يتقوقع في عالمه الخاص.

لكن الحقيقة غير ذلك، بل نجرؤ على القول، إنَّ الإنسان، الفرد الواحد يمكنه أن يساهم في تغيير العالم، بمجرد أفعال بسيطة.. ولكن كيف؟!..

.....

تستند التنمية «development» في المجتمعات الإنسانية كافة، ثَريِّها وفقيرها، مُتقدِّمها وناميها، على أساسيَيْن اثنَيْن، الأول، خطط الدول والتي تقوم الحكومات بأجهزتها التنفيذية المختلفة على تحقيقها، وفي رؤية شاملة لمتطلبات المجتمع، والثاني، هو المبادرات الخاصة، سواء تلك الفردية «Individual initiatives»، أو التي تنهض بها مؤسسات أهلية خاصة «Civil institutions»، ضمن ما يُعرَف بمؤسسات المجتمع المدني «Civil society».

وأكثر مسارات التنمية الاجتماعية والاقتصادية فاعلية، هي تلك التي تنهض على أساس دمج الجهود الأهلية مع الخطط الحكومية، ومنح المؤسسات الخاصة، من جمعيات وشركات مدارس وغيرها من صور العمل المؤسسي، دورًا أساسيًّا، وليس مجرَّد بديلٍ أو دورًا صوريًّا لمجرد الحصول على منح ومساعدات من القوى الاقتصادية الكبرى والمنظمات الإقليمية والدولية التي باتت قضية مشاركة المجتمع المدني والقطاع الأهلي في أي نشاط، أساسًا لتقييمها لرشادة وفاعلية أي إجراء حكومي، في أي مجال.

ومنذ منتصف التسعينيات، وبعد أن طرحت الأمم المتحدة إستراتيجيات عمل جديدة لمرحلة ما بعد الحرب الباردة، باتت المنظمات غير الحكومية «**Non-governmental organizations**» فاعلاً دوليًّا معترفًا به قانونيًّا، وأصبحت كلمة «**NGO_s**» ضمن قاموس مصطلحات القانون الدولي العام والخاص، وباتت هناك مؤسسات من هذا النوع شريكةً بالمعنى القانوني والمؤسسي للأمم المتحدة وبرامجها، وهناك ضمن هيئات الأمم المتحدة المختلفة، ما هو معني بالاتصال والتنسيق والعمل المشترك مع هذه النوعية من المؤسسات.

وبالتالي؛ فإنَّه لم يعُد هناك مجالٌ للحديث عن ضرورة أو أهمية العمل الأهلي، وإنَّما بات الأمر يتعلق بفهم كيفية تفعيل بها في ذلك الجهود الفردية.

وربما هنا من إنصاف القول أنَّ المجتمعات العربية والمسلمة، كانت أسبق بكثير من منظومة الاهتمام الدولية هذه بقضية المشاركة المجتمعية الأهلية في جهود التنمية، بمختلف أبعادها، في ظل مركزية قيمة التكافُل في المنظومة الاجتماعية والاقتصادية للإسلام، وفي ظل أهميتها في المرتكزات التقليدية التي تميِّز المجتمعات العربية منذ قديمٍ.

ومن دون كثيرٍ من التنظير؛ فإنَّ أهم معوقات تفعيل الجهود الفردية «Individual efforts»، على أرضِ الواقع، هو المُعَوِّق النفسي الذي يتصل بقضية مدى قناعة المبادِرِ أو صاحب الجهد في إمكانية أنْ يحدِثَ أي تغييرٍ في مجتمعه وبشكل عام.

وقد يكون ذلك بسبب رؤية أو إحساس بالفعل لدى الإنسان، أو بسبب المحيطين به، والذين يروجون لعبارات على غرار «يعني أنت حتغيَّر الكون»، أو «حتعمل إيه واللا إيه»، استنادًا لواقع شيوع المشكلات وعمقها بالفعل، أو بسبب طبيعة شخصية أنانية، أو شخصية تميل إلى الكسل، أو عقليات قاصرة عن رؤية الأمور بالصورة الصحيحة.

ولعل هذا هو أحد صور التثبيط التي حذَّرنا منها القرآن الكريم.. يقول اللهُ تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سُورَة «الأحزاب» – الآية ١٨].

وفي هَدي الرسول الكريم «صلَّى اللهُ عليه وسلَّم»، نجده يقول: «إنْ قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلةٌ فليغرسها فإنْ استطاع أنْ لا يقومَ حتى يغرسها فليغرسَها» [أخرجه البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني]، والمعنى واضحٌ؛ حيث إنَّه – عليه الصلاة والسلام – يقصد أنَّه لا ينبغي أنْ نيأس، وأنْ نجتهد قدر المستطاع، ولا نترك العمل، حتى ولو لم يكن هناك أيُّ إمكانية لأنْ نرى ثمرته أو أنْ يثمرَ أصلاً؛ حيث إنَّه – وبعيدًا عن مجازِ القول في الحديث الشريف بشأن قيام الساعة والإنسان في هكذا حال؛ بيده فسيلة أو أمامه عملٌ ينبغي له أنْ يتمَّه – بالتأكيد؛ سوف يشهد غيره ثمرة هذا الغرس أو العمل.

وقريبٌ من ذلك قوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم»: «لا تَحقِرَنَّ مِن المعروف شيئًا وَلَو أنْ تَلقَى أخَاكَ بوجهٍ طليق» [أخرجه مسلم]، وقوله أيضًا عليه الصَّلاة والسَّلام: «لأنْ يهدي اللهُ بكَ رجلاً واحدًا خيرٌ لَك من حُمْر النَّعَم» [مُتَّفقٌ عليه]، و»بَلِّغوا عَنِّي ولو آيةً» [أخرجه البُخاري].

وبالتالي؛ فإنَّ مَبْدأ الأمر، الذي ينبغي أنْ يتحوَّل إلى قناعةٍ راسخةٍ لدى أي إنسان صحيح الإنسانية، ويسعى إلى الخير، هو أنْ يؤمنَ بقيمة ما يفعل، مهما كان صغيرًا، أو بمعنىً أدق، مهما بدا له صغيرًا، ومن أنبياء اللهِ تعالى مَن سوف يُبعَث مع مؤمن أو اثنين فقط من قومه، ولكن أحدهم لم يتذمَّر، وقصة نبي اللهُ تعالى «يُونُس» (عليه السلام)، استثناءٌ من ذلك.

والمبادرة الفردية ترتبط في ديننا كذلك بأمور مهمة، وهي قناعة يجب أنْ تكون لدى الفرد المسلم، تصل إلى مستوى العقيدة، وهي أنَّ الإنسان ما عليه إلا السعي، بينما النتيجة والمُحَصِّلة على اللهِ تعالى، وحتى في السعي؛ يكون الاعتماد على اللهِ تعالى، والتَّوكُّل عليه، من دون النظر إلى حجم الإنجاز، أو إلى ما يمكن أنْ نحققه، فالمهم، هو فعل الخير والاستباق إلى الخيرات كما قال لنا القرآن الكريم.

وفي حقيقة الأمر، وعند النظر إلى المبادرات الفردية بالمقاييس العلمية المادية، أي المتعلقة بالاقتصاد والإدارة، وفي مجال العلوم الاجتماعية؛ فإنَّنا لن نجدَ أنَّها ضعيفة الفائدة إلى هذه الدرجة.

فانتشار المبادرات الفردية، سوف يقود إلى تعظيم الأثر، وهو حتى أمرٌ مفاهيمي قائمٌ عند العاملين في حقول التنمية الاجتماعية المختلفة؛ حيث إنَّهم يقولون إنَّه لو

قام كلُّ فردٍ من أفراد المجتمع بعملٍ واحدٍ صالح في اليوم؛ سوف تنتهي مشكلات المجتمع كله في أقلِّ من شهرٍ واحد.

فالتراكم، ولاسيما لو تمَّ بمتوالية هندسية، أي أنْ تكون زيادة وتيرة العمل الفردي بمعدلات مُضَاعَفة؛ فإنَّه يمكنه أنْ يحقق آثارًا ضخمة بمرور وقت قصير نسبيًّا.

وهو ما يعني أنَّ هناك مركزية كبرى في هذا الصدد لتحويل «المبادرات الفردية» إلى قناعة عامة وثقافة مجتمعية؛ وقتها سوف يمكن أنْ نجد أن فردًا واحدًا يمكنه أنْ يغيِّرَ العالم بالفعل.

ويطرح ذلك نقطة مهمة في مجال التنمية البشرية، وهي نقطة الثقة في النفس، وعدم الالتفات إلى عبارات التحبيط والتثبيط إذا ما أراد الإنسان النجاح.

وفي حقيقة الأمر؛ فإنَّ هذا الحديث ليس مِن قبيل التشجيع فحسب، وإنَّما هو أمرٌ مُجَرَّب، وفعَّال من خلال سوابق عالمية قائمة تستند إلى تدعيم المبادرات الفردية، وترتيبها في قالب تجميعي أكبر، يجعل الكُلَّ أكبر من مجموع أجزائه؛ حيث إنَّ الصورة الضخمة الواسعة الانتشار، والعمل الكبير المتراكِم، يخلق بيئة من الحماس والتشجيع للآخرين للانضمام إلى الرَّكب.

ومن بين أهم هذه المبادرات في هذا الاتجاه، مبادرة «تفعيل» التي تعمل في عشرات البلدان حول العالم من خلال رموز فنية وإعلامية ومجتمعية، تسعى إلى دعم مبادرات فردية من هذا النوع، ولو كان الأمر يتعلق بمنتدى ثقافي للفتيات في قرية محلية في أعمق أعماق بلدٍ إفريقي أو لاتيني.

وبالتالي؛ فإنَّ العمل وفق هذه الرؤية، وهذه الوتيرة، يعني أنَّه من الممكن للمبادرات الفردية، حتى ولو كانت في حدود ضيقة المساحة والتأثير؛ أنْ تغيِّر العالم بالفعل.

.....

وأيًّا كان مستوى الإنجاز المتحقق؛ فإنَّنا نعود إلى المرتكز الديني في هذا الموضوع، وهو أنَّه ما علينا إلا السعي، لأنَّه هو الذي سوف يُرى من اللهِ تعالى، وسوف يكون على رؤوس الأشهاد يوم العرض عليه، وبالتالي؛ فإنَّنا لا ينبغي لنا أنْ نألوا أي جهدٍ إصلاحي ولو كان مع طفلٍ واحد، ولو كان مجرَّد رفع ورقة قمامة صغيرة ملقاةً على قارعة الطريق!

تمَّ بحمد اللهِ وعونه وتوفيقه..؛؛

الكاتب في سطور:

«باحث مصري في شئون التنمية السياسية والاجتماعية، حاصل على بكالوريوس في العلوم السياسية والإدارة العامة من جامعة القاهرة عام ١٩٩٧م، يعمل كاتبًا في موقع «بصائر».

شغل منصب سكرتير تحرير مجلة «القدس» الشهرية، وكان عضوًا في هيئة تحرير دورية «حصاد الفكر» المُحَكَّمة، واللتَيْن كانتا تصدران عن «مركز الإعلام العربي» بالقاهرة.

له العديد من الإصدارات في مجال الفكر السياسي والإسلامي، والسياسة التطبيقية، وهي:

١. كتاب «أمتنا بين مرحلتين»، وصدر عن «مركز الإعلام العربي»، في العام ٢٠١٣م.

٢. كتاب «دولة على المنحدر»، وصدر عن «مركز الإعلام العربي»، في العام ٢٠١٤م.

٣. كتاب «الدولة في العمران في الإسلام»، وصدر عن شركة «الرسالة»، في العام ٢٠١٥م.

٤. كتاب «إيران وصراع الأصوليات في الشرق الأوسط.. سياسات تعميم الفوضى الإقليمية ودور إيران فيها»، وصدر عن شركة «الرسالة» في العام ٢٠١٦م.

٥. كتاب «أسس الحضارة والعمران في القرآن الكريم»، وصدر عن دار «مسار» للنشر والتوزيع، في العام ٢٠٢٠م.

٦. كتاب «الدولة العربية.. أزمات الداخل وعواصف الخارج»، وصدر عن دار «مسار» للنشر والتوزيع، في العام ٢٠٢١م.

كما صدرت له أربع مجموعات قصصية وشعرية، وهي:

١. «كلمات.. مشاهد من الحب وفي الحياة»، مجموعة قصصية صدرت عن دار «سنابل»، عام ٢٠٠٩م.

٢. «بالأمس كنتُ معكِ»، مجموعة قصصية صدرت عن دار «مسار» للنشر والتوزيع، في العام ٢٠٢٠م.

٣. «سوزان.. وخاطرات شعرية أخرى»، مجموعة شعرية صدرت عن دار «مسار» للنشر والتوزيع، في العام ٢٠٢١م.

٤. «رسائل الأثير.. إلى عَزِيزَتي فتاة المَدرَسة»، وهي مجموعة من الخواطر والكتابات الشعرية والقصص القصيرة، وصدرت عن دار «مسار» للنشر والتوزيع، في العام ٢٠٢٢م.

..*

فهرس الموضوعات

الفَصْلُ الثَّانِي